سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

مخاطر الاستكشاف في الجزيرة العربية

تأليف
برترام توماس

ترجمة
محمد أمين عبد الله

١٤٠١هـ / ١٩٨١م

Bibliotheca Alexandrina
0157549

اهداءات ١٩٩٨

وزارة التراث القومي والثقافة

سلطنة عمان

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

مخاطر الاستكشاف في الجزيرة العربية

تأليف

برترام توماس

ترجمة

محمد أمين عبد الله

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

« ان الآراء والمعلومات الواردة في هذا الكتاب هي على مسئولية المؤلف ولا تعبر بحال من الأحوال عن آراء حكومة سلطنة عمان »

مقدمة

« للجزيرة العربية تأثير قوى على غزو القلوب ، وقد وجد كثير من الأوربيين أنهم قد أخطأوا ، فى السنين القليلة الأولى ، بإحضارهم أدواتهم الخاصة من ساعات ، وملابس سهرة ، وصحف وكتب ، وغير ذلك من الألعاب والوسائل المسلية ، وكذلك بعض الأطعمة التى اعتادوا عليها فى أوطانهم ، كل ذلك كى يشعروا بالراحة فى إقامتهم ، ولكنهم سرعان ما وجدوا طرقا أبسط للحياة ، تغنيهم عن تلك الأشياء .

وعندما يفكر الإنسان فى تلك المنطقة من العالم وتكون له عنها وجهة نظر معينة ، فإنها سرعان ما تتغير بتغير التقاليد التى يجدها فى المكان الجديد .

ومن عادة المسافر أن يتوق إلى زيارة بعض من الأجزاء الشاسعة فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ورسم خريطة للأماكن التى يزورها ، وهى تلك التى لم تسمح الظروف للمستكشف الأوربى أن يراها من قبل .

وهناك الكثيرون من الرحالة ممن يستمتعون بالجزيرة العربية ، حيث إنهم يحبون العرب حقيقة وليس على سبيل العطف عليهم ، ولكن لأنهم وجدوا فى العرب مايثير إعجابهم ، وأنهم يدركون أن العرب قد تطوروا عبر قرون عديدة ، فكانت لهم فلسفة ، وطرق حياة متوافقة مع البيئة المحيطة بهم ، وذلك هو ما أثر عليهم فى صحتهم البدنية ، وفى اطمئنانهم النفسى ولم يفكر هؤلاء كثيرا فى أنهم متعصبون أو قدريون ، وقد وجد الأوربيون

هـذه الـصفـات متزاوجـه أو متوافقـة ومناسـبة للحالـة المزاجية للعرب .

ومؤلف هذا الكتاب هو أحد المسئولين السياسيين في منطقة الرافدين خلال الحرب الأولى ، وبعدها قبل اختياره ليصبح مسئولا عن الإشراف المالى ، لسلطنة عمان ، واعتقد أنه أول إنجليزى يحتفظ بوضعه كمسئول فى دولة عربية مستقلة ، فقد حصل على الثقة من السلطان السيد تيمور بن فيصل ، وكانت علاقاته قوية مع رؤساء القبائل العربية فى ساحل عمان ، مما مكنه من القيام برحلتين هامتين :

الأولى : كانت عند جنوب شرقى حدود الربع الخالى ، بالقرب من رأس الحد ، حتى ظفار .

والثانية : من ظفار إلى مسافة مائتى ميل من الداخل وتغطى هاتان الرحلتان أكبر جزء تم استكشافه فى أى منطقة من العالم .

وقد قام بنشر الدراسات التمهيدية عن القبائل التى قابلها فى رحلته الأولى ، كما نشر كذلك بعض الدراسات الهامة الخاصة باللغة التى يتحدثها الشيوخ فى شبه جزيرة مسندم ، لمعرفته الكبرى بذلك المكان الذى امتد جزؤه الجبلى إلى داخل البحر ، وكذلك عن سكانه ، وهو بصدد الكتابة عن رحلة استكشاف أكثر متعة رغم خطورتها ، ونتمنى أن ينهيها لمعرفة شيء ما عن الحياة هناك ، وبقراءتنا لتلك الصفحات قد نرى قوافل الجمال ، ونسمع رنين الأجراس فى الطريق ، خلف المدن على دروب الجبال الشديدة الانحدار ، بجوار أطراف الصحراء .

ولسوف نرى السلطان فى قاعدته ، والقبائل وهى تحلب الجمال ،

والإنسان هناك هو دائما الإنسان المشغول بشئونه الخاصة، وهو يترك كل شئ لله ، حياته ، وزواجه ، وعائلته وكل شيء .

والناس هناك ليست لحياتهم أهمية بالنسبة لهم ، فهم على استعداد للتضحية بأنفسهم ، فى سبيل مبدأ ، يؤمنون به وهم يدركون أنهم عرب ، وهم يعتزون ببلادهم ، وهم رغم أنهم ليسوا متعلمين إلا أنهم يفهمون الكثير عن طريق الوراثة والتجارب .

اى — تى ويلسون

الأول من يناير ١٩٣١

الفصل الأول

رحلة شاقة مع جلالة السلطان
فى الباطنة الشرقية

عند الفجر ، تركنا قصر مسقط الفسيح ، وجلس بجوارى — عند مؤخرة السفينة — السيد سعيد بن تيمور ولى العهد ، الذى كان فى ذلك الوقت فى عمان ، فى إجازته الدراسية ، من كلية أزمير بالهند ، ووصلنا إلى ميناء صخرى مظلم ، وعندما كنا ندور حول المنحدر الغربى للميناء رأينا الاسم ، ديانا ، مكتوباً بخط كبير ، وبحروف بيضاء نظيفة بجوار علم مثلث ذى طباعة جميلة ، يسجل الزيارة الحديثة لسفينة حربية فرنسية لمسقط ، إذ أنه لابد أن تترك كل سفينة بطاقة فى مسقط ، وعلى ذلك فإن أول ما يجذب انتباه الفرد عند دخول الميناء هو الأسماء التى يراها تزين الصخور فى الميناء .

وذات مرة ، وفى البحر الواسع اتجهنا نحو جزيرة الفحل التى تحيطها أشرعة أساطيل الصيد ، وعلى اليسار ، بعيداً ، رأينا المنازل البيضاء الناصعة فى مطرح ، معششة أسفل سور من الجبال العالية ، هنا وهناك ، وعلى رأسها برج حصين ، جاء ذكره فى بعض المغامرات التى قام بها الغزاة الفرس ، فى القرن السادس عشر ، وقد بدأ هذا المشهد بينما كنا نمر أسفل الصخور الملتوية ، التى تنحدر بشدة نحو البحر ، وشاهدنا بقايا بعض السفن المتخلفة عن الكوارث البحرية .

وبعد ساعة بدأت تلوح على البعد منطقة « سيح المالح » مقصدنا الحالى .

وكانت هناك مطيتى الوفية ، علاوة على الجمال الكثيرة التى اعتدت ركوبها لآلاف الأميال ، ولكن لابد لهذه الجمال من تحمل عمل اليوم الشاق .

وعندئذ كان السيد سعيد ينتظرنى ، وعندما رآنى كان يرفع بندقيته لرؤية غزال على البعد . وتحركنا عبر رمال كثيرة التموج بين التلال المحمرة ، التى تقع على الحافة الخافية الوطية ، وكانت هناك بعض النباتات القليلة نتيجة للمطر أو الندى الكثيف الثقيل ، إذ لا يوجد هنا أى بئر ، كى يضفى بعض الرخــاء على المــكان . فالمـاء بالنسبة للعرب يعتبر شيئاً عظيماً .

وهناك توقف سيف بن يعرب فجأة قائلا بتحد « هذا هو المكان الذى يجب أن يبدأ الحفر فيه بحثاً عن الماء » وأشار إلى مكان معين ، ولكن بعض الرفاق قالوا : إن أرض الوطية ليس بها ماء ، ولكن سيف صمم ، وأمر رجاله ، قائلا « احفروا هنا ، وسوف تعرفون حلاوة الماء » .

وترك سيف الرجال ، وتسلقنا بعض القمم ، التى تحيط بها أشجار السنط ، ورأينا أمامنا الأحراش الخضراء للوطية ، ومنزلا أبيض صغيراً ، معداً لنزولنا ، حيث وصل جلالة السلطان إلى هذا المكان ، قبلنا بليلة ، وكان فى انتظارنا ، وكان برفقته بعض الشيوخ ذوى اللحى ، فى ملابسهم البيضاء ، وكذلك هناك بعض الحرس ، الذين قاموا بتحيتنا ، بنظرات تقليدية ، وكان يتوسطهم رجل ذو قامة ، به ملامح العظمة والحكمة ، ويدل عمره على النضوج « إنه جلالة السلطان نفسه » .

ثم ذهبنا إلى حاكم المدينة ، الذى تقدم كذلك لاستقبالنا بحفاوة العرب البسيطة ، وقد سألنا جلالة السلطان بشوق عن الرحلة الصباحية ، وعما إذا

كانت الاستعدادات التى قام بها قد أعجبتنا أم لا .. ثم تحدث معى عن التركيب القبلى للمجتمع هنا حيث يعيش الناس مع جمالهم وأغنامهم ، التى تخرج للعراء بحثاً عن الطعام ، ويتوجهون حيث أشجار السنط ، وحيث الظل ، وحيث يجلس أصدقاؤهم البدو .

وهنا عادة يقوم بها المجلس المحلى ، وهى فرش بسط على الأرض تحت الشجر ، ورص الموائد ، لإقامة نوع من الولائم . والوليمة هى مأدبة صغيرة تسقى فيها القهوة ، ويوضع فيها بعض الطعام حيث يأتى كل جائع ليأكل ، والوالى ينفق عليها بسخاء ، وهذه المأدبة تقام صباحاً ، ومساء ، وليلا ؛ ثم صحبنى السلطان إلى منزله الأبيض الصغير ، حيث كان على أن أنتظر حتى التحرك فى الصباح .

والمنازل العربية هنا كلها متشابهة ، « بلاديكورات » أوربية ، ولا نوافذ زجاجية ، وكانت الحجرة العليا التى أقمت بها منخفضة السطح بشبابيك مربعة ، ونوافذها ذات سياج حديدى . والأرض مغطاة بالمفارش ، وعلى الجدران بعض البنادق والسيوف والخناجر .

وفى تلك الحجرة جلسنا السلطان وأنا والعرب نتبادل أطراف الحديث لفترة طويلة ، وقد سألنى أحد الحاضرين : لماذا لم تتزوج ؟ فأجبته ، إن النظام هنا يختلف عن أوربا ، حيث يمكن للزواج أن يتم هنا عن طريق الآباء عند بلوغ الأبناء ، وكذلك الطلاق مباح لمقتضياته الشرعية ، بينما يختلف الأمر عند المسيحى .

وعند الظهر ، جاء الخادم ليعلن عن الغداء ، فنزلنا ، وكان هناك بعض الشيوخ الزائرين ، وأكل الجميع بعد أن قال جلالة السلطان « بسم

الله » . وبعد الطعام خرجنا إلى وادى عدى ، حيث خرج البدو لتحية السلطان من كل الجهات .

وكان هذا الطريق فى الوادى عبارة عن صخور صلبة وفجوات بركانية ، حيث تتسع ، وتخرج من الكثبان الرملية على اليمين وعلى الشمال . وهناك قطاع أخضر أسفل تلال صخرية تواجه البحر ، وقد لاحظنا كذلك ضواحى بوشر . وفى الجانب المقابل وجدنا ثلاثة حصون قديمة ، وانطلقت المدافع من أول حصن للتكريم ، وانطلقت الطلقات النارية الملونة لتغطى سحبها الجميلة سماء الوادى .

وخرج الشيخ على والى بوشر ، لاستقبالنا وتحيتنا . ومن كرم الوالى أن منحنى حجرة جميلة للإقامة بها ، وعند الظهر ذهبت للاستحمام فى عين بوشر الشهيرة بالمواد المعدنية ، وخاصة الكبريت ، وقد وصلت شهرتها هذه إلى سلطان زنجبار الذى جاء للاستمتاع بها لأسباب صحية .

ثم جلست أنا بجوار أحد المساجد ، وقبل غروب الشمس بساعتين كنا على ظهور الجمال مرة أخرى ، تاركين بوشر ، واخترقنا للمرة الثانية ذلك الوادى إلى طريق السيارات ، الذى يعد الأول من نوعه فى هذه البلاد .

وعندما تسلقنا واحدة من القمم العالية شاهدنا خلفية شيقة ، ففى الخلف وعلى اليمين كانت هناك كتلة صخرية سوداء ملتوية ، ترتفع برؤوسها على مسقط ، ولمسافة سبعة أميال وراء « بتى » وهناك جبال الحجر ، التى تبدأ فى الارتفاع على الساحل لمسافة أربعين ميلا وإلى نقطة خمسة وسبعين ميلا فى الشمال ، ثم تعود لتنحدر إلى الساحل مرة ثانية عند

« خطمة الملاحة » ويقع بينها وبين مياه خليج عمان سهل متسع ، وهو سهل الباطنة التي تعتبر من المناطق الرئيسية لسلطنة عمان .

وساحل الباطنة ساحل رملي ممتد لامع ، وبه صخور هنا وهناك ، ثم حدائق النخيل ، وهي إحدى أكبر حدائق النخيل الثلاثة في العالم ، وهي تقع بموازاة الشاطئ ، لمسافة مائة وخمسين ميلا ، ولها عمق من ثلاثة إلى أربعة أميال في بعض المناطق ، وسهل الباطنة عظيم متسع ، تنتشر فيه حدائق النخيل حتى الجبال ، وفي الوادي كذلك أشجار السنط ، وتوجد في السيل كذلك الجمال والغزلان .

ولقد كانت رحلتي هذه مع جلالة السلطان ممتعة للغاية ، حيث الشواطئ الذهبية ، وكذلك بعض الموانى العربية الصغيرة القديمة التي ارتبطت بالسندباد البحري ، وهناك قرى الصيد الصغيرة التي يقوم رجالها بالغطس بحثاً عن اللؤلؤ .

ومن التل هبطنا إلى سهل السنط حيث وصلنا إلى وادي « عبيدة » ثم اتخذنا طريقنا لمدة ساعة في غابات السنط ، ثم وصلنا إلى معسكر جميل من أشجار النخيل يسمى عبيدة ، حيث استرحنا على الرمال في استرخاء تام ، وفي الصباح التالي خرجنا للطريق الرملي خلال أحراش السنط بموازاة البحر ، ثم ظهر سهل بلا أشجار يسمى « أم السبخة » ويتميز بطبيعته الخاوية وأملاحه ورماله الناعمة ، ثم تفرق الرجال ، بعضهم لإعداد الطعام ، والبعض الآخر للبحث ، ورأينا رعاة الأغنام والحمير المحملة باللبن واللحم والخبز .

وحينئذ هبت ريح الشمال ناثرة رمالها فوق كل شئ ، الرجال والجمال ،

وذهبنا إلى حدائق النخيل للاحتماء من الرمال ، حيث وجدنا آبار المياه عليها حبل مربوط بدلو لرفع الماء ، ويتم رفع الماء لأعلى بالجذب ، وبعد أن تركنا منطقة الحدائق وصلنا بعد أربعين دقيقة عبر واد متسع ، ينفتح على البحر ، إلى أحد السبعة ممرات المتشابهة ، والواقعة بين الغبرة والمنومة ، وهى المخارج الرئيسية لوادى سمايل . ثم مررنا بقرية السيب ، ووجدنا هناك والى مطرح ، الذى وفد هو وبعض المشايخ لتحيتنا .

والسيب بلدة هامة يأتيها السكان من العاصمة فى شهور الصيف ، والحياة فيها بسيطة .

وإنه ليس من الصعوبة بمكان أن يدخل أى شخص إلى حدائق النخيل ، ويأخذ مايريد دون أن يغضب صاحبها ، فحفنة من التمر لاتؤثر ، وهى ليست بعزيزة على المحتاج إليها .

ويزور التجار كثيراً «السيب» لاستثمار نقودهم فى تجارة التمر ، والمحاصيل الأخرى ، أو لقضـــاء الصيف مع ذويهم . وسكان السيب الذين قاموا برحلات لزنجبار والهند والعراق قد جلبوا معهم محاصيل وزهورا جديدة لزراعتها هنا . والهواء هنا معطر بالياسمين والحنة ، والفاكهة هنا ناضجة ، وهى معلقة فى الأغصان وكأنها لاتعرف يد الفلاح أبداً ، ومن الأشجار التى تنمو فى منطقة السيب أشجار المانجو وجوز الهند .

ثم بدأنا التجول فى القرية مارين بمجموعات البدو ، نتلقى التحيات التقليدية منهم .

وهناك بعض المنازعات بين القبائل ، ويتم عرضها فى مجلسه .

ثم خرجنا إلى الطريق ، ومررنا ببعض القرى ذات النخيل . ووجدنا حصناً قديماً صحراوياً ، بنى من الطين ، وفيه مسجد .

وفى النهاية وصلنا وادى المنومة المميز الذى تحيط بها أشجار النخيل ويطل على البحر ، وبقينا هنا حتى المساء ، وبعد أن أدى جلالة السلطان وحاشيته الصلاة حضر العشاء وكان لحماً مشوياً .

ولكنى فضلت كوباً من اللبن لأنى لم أكن أستطيع الانتظار حتى ينضج الطعام ؛

وخرجنا فى الصباح ، حيث كان شجر السنط يزداد كثافة كلما تقدمنا ، بالرغم من أن هناك علامات لمبنى جديد يلمع فى قلب الأشجار . والطبيعة الرملية للتربة هنا تسمح بوجود فجوات ، ومن المشاهد المحزنة أن ترى رجلا يقع من فوق حصانه حاملا على كتفه بندقيته ، التى ربما تخترق ظهره عند الاصطدام بالأرض .

وفى عُمان يتم نقل البضائع على ظهور الجمال الذكور ، وإن كان الناس يفضلون الإناث لحركاتها الرشيقة . ووصلنا إلى حصن بركا .

وفى بركا تتناثر الأودية الصغيرة العميقة ، ولذلك أسباب تاريخية . وتعتبر بركا المركز الرئيسى لمنطقة الباطنة .

وكان والى بركا مع بعض الشيوخ يقفون فى الانتظار لاستقبال جلالة السلطان وتأدية التحية لموكبه .

وانتوينا أن نبدأ مبكراً عن المعتاد هـذا المساء ، وكان الوادى مليئاً بالاستعدادات الرائعة ، فهنا البدو على جمالهم عائدين من الماء بعد السقى ، وهناك بعضهم يقوم بتنظيف السرج ليبدو أكثر جمالا .

ثم وصل إلينا تلغراف ، فقال السلطان « ماذا حدث ؟ » « ماالخطب »
وقد كان الأمر أن هناك نزاعاً طائفيا فى جواذر على ساحل مكران ، وأن هناك قتالا بين البلوش وأتباع أغا خان ، وأن رجلا قد قتل ، وأصيب آخرون ، وقد أرسلوا نداء واستغاثة إلى السلطان .

وعلى الفور لاحظت التوتر على وجه جلالة السلطان ، فطلب منى تأجيل رحلتنا . ثم تساءل ، هل لابد من إرسال قوات من بيت الفلج ؟ هل أعود وأذهب لى جواذر ؟ . . ولكن القارب الحربى موجود فى بومباى .

وفى النهاية أرسل جلالة السلطان أوامره لنوابه فى مسقط ، كما بعث برسالة تأكيد لمجلس أغا خان فى كراتشى ، وقرر أن يظل ساهراً طوال الليل فى انتظار أخبار التطورات قبل أن يقوم بأية تحركات أخرى .

الفصل الثانى

رحلة مع جلالة السلطان
فى الباطنة الغربية

وأثناء راحة النهار كنا لانزال فى بركا ، وكانت التلغرافات التى وصلت عند الظهيرة قد خففت من صدمة أخبار الأمس ، وأزالت معالم التوتر . فقد تمت السيطرة على الموقف فى جواذر ، وتم التعامل معه عن طريق السلطات المسئولة هناك ، ولم يعـد ثمة أدنى احتمال فى تخلينا عن القيام بالرحلة .

وهكذا أصبح فى الإمكان أن نستريح وسط النهار ، ثم نستأنف سيرنا نحو الشمال .

وكان طريقنا عبر الشاطئ تجاه جزيرة السوادى ، ومع أن شمس الظهيرة كانت تسطع فى وجوهنا إلا أنها لم تكن كذلك داخل حدائق النخيل ، فقد كانت الظلال تخيم عليها ، وكان وراء الجزيرة ميناء كبير ترسو أساطيل الصيد والقوارب الصغيرة فيه ، والمأوى الوحيد هنا يوجد عبر شواطئ الباطنة ، حيث يمكن اللجوء إليه فى فصول الشتاء العاصفة .

وفى الشمال ، والشمال الشرقى ، وبينما كانت الجمال تسير بنا متأرجحة فوق الرمال الناعمة تخيلنا عن محاولة دخول المنعطف المتسع ، الذى صنعه الشاطئ ، وجعله كشاطئ آخر فى غرب الجزيرة . وشاهدنا الأصداف الجميلة ذات اللون الأحمر ، وذلك القطاع الرملى الممتد ذا القلاع الرملية

الصلبة ، كما كانت الشمس الساطعة على امتداد الشاطىء تشكل منظر ساحراً ووجدنا أنفسنا فى تلك اللحظة كما لو كنا فى مصيف إنجليزى فى الصيف ، بما يزخر به من حمامات السباحة ، وحيث يخرج السكان المحليون لجمع الأصداف البيضاء ، ويرتدون الأثواب البسيطة الجميلة .

ثم أخذت الشمس تغوص فى البحر ، وراء سلسلة الجبال العالية خلف الشاطئ والبحر الأزرق ، الذى كان لونه أشبه بأمواج فضية متلاطمة ، كما كانت هناك السفن بأشرعتها الملونة تتحرك على صفحة الماء ، وكان مشهد الغروب قد أشرف على الانتهاء ، وبدأت ظلال الليل تدخل ، وتخفت أصوات الغناء والفرح التى كان يترنم بها البدو .

وعندما اقتربنا من المدينة القديمة « المصنعة » انطلقت المدافع للترحيب ، وكانت صفحة السماء رائعة بالقمر الساطع ، وكانت هناك كأنها مرايا من الفضة ، تمثلها قنوات الماء ومياه البحر الممتد ، التى كان القمر يسطع على صفحتها ، وكان مشهداً رائعاً أن نرى النجوم وهى تنتقل من مجرى لآخر ، ومن بركة إلى بركة ، من خلال صفحة الماء التى كانت تنعكس عليها تلك الأنوار .

وجلسنا نتناول الطعام بجوار حصن المصنعة ، وبينما كنا نتحادث أثناء الطعام قال جلالة السلطان : لقد غير الزمن قيمة كل الأشياء ، حقيقة لقد كان الوقت مناسباً للمناقشات والكلام ، ولكن الأحاديث توقفت فترة قصيرة ، عندما وصل ثلاثة رجال من قبيلة العوامر . وكان هذا يحدث يومياً ، بمجرد سماعهم عن وصول جلالة السلطان ، فيأتون للتحية ، وللحصول على بعض العطاءات التى تنعم بها يده الكريمة عليهم .

ولنتوقف هنا لنتحدث عن السهل المتسع الكائن فى تلك المنطقة ، الذى ترويه مياه خليج عمان ، ويعيش فى هذه المنطقة نحو ألفى نسمة تضم بعض الطوائف ، وتعيش الأغلبية فى أنماط ثلاثة : إما صياد أو جامع تمر ، أو راع .

ويشير البدوى دائما إلى نفسه فيقول بأنه « ملح الأرض » والزراعة بالنسبة لهم تعنى الشغل الشاغل ، ويعيش البدوى هنا بدرجة كبيرة على اللبن ، أما اللحم والأرز فهما وجبة الغنى ، والشىء الوحيد الذى يشترك فيه مع السكان هو الزبد ، ومسكن البدوى هو الظل الذى تمده به أشجار السنط ، فهو يعيش حياة بسيطة سهلة ، ولكنها تحتاج إلى ملاحظات ، والبندقية دائما فى يده ، فهو يرتاب فيمن حوله ، وينتظر الصيد دائما .

أما الصيادون فيتمتعون بالعيش الرغد ، القائم على صيد السردين وكلاب البحر ، وبعض الأسماك التى تحظى بأسواق كبيرة ، وتصدر بصفة عامة إلى الهند ، ويتم تمليكها لتسويقها فى الداخل ، ويستخدم السردين استخدامات محلية ، كعلف للجمال ، وكسماد للأرض ، وكغذاء للإنسان ، ولاتعرف الحيتان هنا . لأن الصيادين لايبحثون عنها ، كما ينتشر هنا « الكافيار » ويعتمد الصيد هنا على الشباك والقوارب الصغيرة .

وتعتبر ثمار النخيل هى الثروة ، التى تعتمد عليها البلاد ، ويتم تصديره للخارج وفى مقابله يتم استيراد السلع الغذائية ، وتتوقف عليه ثروة البلاد . ولابد أن تقوم فى هذه البقاع صناعات لحفظ التمر وتعليبه ، وتجفيفه على طرق علمية حديثة ، فالغرب يحصل على هذه الخامات والمحاصيل ، ثم يقوم هو بتصنيعها مرة أخرى . ثم يعيد بيعها لأصحابها الأوائل .

ونحن الآن فى فصل الغوص فى البحر بحثا عن اللؤلؤ ، حيث تتم هذه العملية على ضفاف شواطئ اللؤلؤ ، فى الساحل المتصالح ، على مسافة تمتد لمئات الأميال ، فيقوم الصيادون والبحارة بالغطس ، وربما يشاركهم بعض البدو ، وبعض المزارعين الذين قد ينضمون إلى سفن اللؤلؤ .

وفى هذا الفصل يزداد النشاط ، وتأتى القوارب من جميع الأرجاء ، كى ترسو على هذا الشاطئ ، وتعتبر هذه الفترة أيضاً فصل حصاد التمر والهجرة إلى الحدائق ، وتظهر الفرحة على الوجوه ويعم الفرح ، وترتفع أصوات الغناء معبرة عن مواسم حصاد التمر واللؤلؤ . وقد أمضينا يوما دون تجول أو ترحال .

وجلس جلالة السلطان ورفاقه معى على الشاطئ ، وقضيت ساعة فى قراءة كتاب لرحالة اسمه « بلجريف » وهو إنجليزى ، من أصل يهودى ؛ ثم حل الظلام ، فتوقفت عن القراءة ، وأنا أشعر أن بلجريف هذا هو أحسن رحالة ظهر بالجزيرة العربية ، وهو أروع من كتب فى أدب الرحلات عنها .

وأمضينا تلك الليلة فى استرخاء تام على الشاطىء ، نستمع إلى بعض الغناء ، ونشاهد الرقصات التى كان بعض العبيد والبدو يؤدونها ، كما تبادلت مع جلالة السلطان بعض الفكاهات ، وسمعنا أصوات الجياد تملأ الهواء ، وطلقات المدافع من فوق الحصن تبعث بتحياتها إلينا .

وهناك قرية ودام وهى مشهورة بالصيد والأشجار ، وهى تحاذى الشاطئ ، وسكانها من البدو الذين يعتمدون على التمر .

وقد مرت أمامنا ونحن جلوس على الشـــاطئ مجموعات كبيرة من

الجاموس والجمال فى مواكب حافلة ، وكأنها جاءت لتحية السلطان ، وعلى ظهورها البدو يلوحون بأيديهم ، معبرين عن الفرحة ، وقد لاحظت أن قدم الجمل تشبه إلى حد كبير قدم الغزال فى الرقة والرشاقة .

وأثناء تناول فطور الصباح ، جاء رجل بهى الطلعة ، مرصع بالجوهرات ، وهو يرتدى أثوابا أنيقة . . وجاء يشكو عبده قائلا ، إنه قدسبّه . . ثم جاء العبد وقال ، إنه لم يفعل ذلك ، وذكر أن مخدومه قد قسى عليه فى العمل ، وأنصف السلطان العبد .

والقانون هنا يكفل العدالة للجميع ، ويقضى على ألوان الذلة والهوان ، فمن حق العبد أن يتزوج ، وأن يحظى بجميع الحقوق القانونية ، ويحصل على كافة حقوقه كاملة ، وإذا كان لدى العبد قدرات ومواهب فإن هذا سوف يدفع سيده كى يرفعه إلى مكانة أعلى .

وقد جعلت الديمقراطية العربية للعبد مكانة أفضل مما مضى .

وفى المساء تلقينا دعوة لزيارة قرية البطحاء ، ونزلنا ضيوفا على شيخ قبيلة يال سعد ، الشيخ هلال ، وقضينا ساعة فى ظل أشجار النخيل ، وسمعنا طلقات الحصن ترحب بنا ، وشهدنا مبارزة بالسيوف ، ثم وجدنا القرويين يحتشدون فى كل جوانب بنا ، وكان الشيخ نفسه يقود ركب السلطان ، وعندما جلسنا أخذنا نتناول الحلوى والقهوة كالعادة ، وكان أمامنا حصن ، وخلفنا مسجد ، وحولنا مزارع النخيل ، وعند الفجر سمعت الأذان من المسجد المجاور وهو يردد : الله أكبر . . الله أكبر . . أشهد أن لا إله إلا الله . . .

ثم سرنا عبر الوادى تجاه البحر ، واستأنفنا رحلتنا عبر الشاطئ ، حيث

القوارب المنتشرة والأعلام الجميلة ، التى كنا نراها فى طريقنا ، وعليها الأشرعة التى كانت تشبه أجنحة الفراشة فى شكلها .

ثم وصلنا ظبيان فى التاسعة حيث استضافنا الشيخ خالد ، وكان هذا الشيخ الكريم مثالا للقادة الذين يلعبون دورا هاما وعظيما فى مثل هذه المجتمعات البدائية ، وهو ضحية للألقاب العالية التى يحملها ، حيث تضفى عليه المزيد من العمل ، والقانون هنا مستمد من القرآن ، والجريمة هنا تعاقب « المثل بالمثل » « العين بالعين والسن بالسن ، والبادى أظلم » وتطبق العقوبة العظمى هنا من خلال الشريعة ، وتوجد الدية هنا ، وهى نظام التعويض ، حسب ما تقرره الشريعة الإسلامية .

وفى أعلى الشاطئ فى ظبيان كانت هناك الحدائق الكثيفة ، وظلال أشجار المانجو ، وفى جانب من الحديقة كان هناك كوخ صغير ، يبدو أنه لصياد ، أو لبستانى ، على حد سواء ، وبناء الكوخ يثير الإعجاب ، فهو مبنى بالكامل من أشجار النخيل والجذوع ، كذلك السقف كان من سعف النخيل . وبعد إقامة قصيرة وجدت نفسى على المسرح مرة ثانية ، وأمامنا الرمال الذهبية الشاسعة التى تقع بين صفوف من أشجار النخيل الخضراء ، وبين البحر الهادئ ، وكانت هناك أعداد هائلة من طيور النورى ، تنزل إلى المياه ، لتلتقط طعامها ، ووصلنا إلى الخابورة .

ثم جاء الوقت الذى أود فيه معرفة النظم والترتيبات التى يقوم عليها عمل الوالى .

لقد كانت الشمس تميل الى الغروب عندما عدت إلى معسكرى على الشاطىء ، وكان هناك مائة صياد بشباكهم الطافية على الماء ؛ وكانت هناك

كميات هائلة من السردين ، وقد بدت كقطع من الفضة تحت أشعة الشمس ، وقد خرجت من عالم الحرية فى مياه البحر إلى الشاطىء حيث تلتقطها الطيور .

وقال لى جلالة السلطان ، تعال نقدم لك وجبة لذيذة ، ثم دخل خادم بطبق ملىء بقطع القصب الذى كان مذاقه حلوا .

ثم قال جلالته : عندى لك شىء رائع ، ورأيت الشيخ خالد يأتى بناقة صغيرة ، وطلب السلطان منها بعض اللبن ، وحقاً فقد كان مذاقه حلوا كذلك .

وبينما كنا نجلس سمعنا بعض الزغاريد تأتى مع موكب للجمال ، جاء للتحية ، ورأيت حلقات الرقص بالسيوف التى قدمها بنو عمر ، وحدثنى جلالة السلطان عن الخلافات بين قبيلة بنى عمر وبعض القبائل المجاورة ، وكيف أن السلام قد حل بعد نزاعات طويلة دارت بينهم ، وفى المساء وبعد الصلاة جلسنا نستمع إلى الشعراء الذين كانوا يلقون قصائد ، من شعر المتنبى ، وهو شاعر يحتل المرتبة الأولى بين شعراء العرب ، ثم سمعنا الزغاريد للمرة الثانية ، وكذلك الأغانى والطرب .

وفى صباح رحيلنا من الخابورة ركبنا الجمال مرة أخرى ، وسرنا تحت أشعة الشمس المحرقة ، وكنا نسمع — دائماً هتافات البدو : الله أكبر .. الله أكبر ..

وفى النهاية وصلنا إلى صحار .. المدينة التاريخية وأحد المراكز السبعة الشهيرة فى الإسلام ، بحصنها العظيم ، الذى يتاخم البحر بأبراجه الحربية . وبينما كنا نقترب خرجت المدافع من أماكنها ، وأطلقت تحياتها ، واصطفت مجموعة من الشيوخ والشخصيات البارزة لتحيتنا ، وكان أول يوم فى صحار هو يوم للراحة ، إذ كانت أجسادنا بعد مسيرة مائة وعشرين ميلا على الجمال فى أمس الحاجة إلى الراحة ، والطعام الجيد ، بعد أن عانيت كثيراً من طعام

البدو . وخرج جلالة السلطان فى العصر للتجول فى المدينة ، وعاد عند الغروب ، ثم حل الليل ، وعاد العرب ينشدون قصائد الشاعر المتنبي مرة أخرى .

ثم قرأت كتابا مليئاً بالحكم العمانية ، او كانت إحدى تلك الحكم بعنوان : « تعلمتها من وجه الذئب » ولكننى لم أفهم ، وعندئذ حكى لى السلطان قصة هذا المثل ، انه ذات مرة اجتمع ذئب ، وثعلب ، وأسد ، حول ثور ميت ، وطلب الأسد من الذئب ، أن يقسم الثور بينهم ، فقال الذئب حسناً : « إن الجزء الإمامى من الثور لنفسه ، والأقدام والرأس للأسد ، والباقى للثعلب ، فلم تعجب القسمة الأســد فضرب الذئب على وجهه ، وجمع كل الأنصبة ، واستدار إلى الثعلب ، وطلب منه القسمة فوافق الثعلب ، وأعطى الأجزاء الخلفية والأمامية للأسد وأخذ الرأس والأقدام لنفسه ، وأعطى ما تبقى للذئب ، فابتهج الأسد لعدالة التوزيع ، وقال للثعلب : من أين تعلمت هذه الحكمة ؟ فقال : تعلمتها من وجه الذئب »

وبعد هذه الأحاديث الطريقة استأذنت للنوم .

الفصل الثالث

رحلة بالجمال عبر شبه الجزيرة العربية

قادتني مطيتي إلى ما وراء عُمان ، حيث هذا المنظر البهيج الذي نراه ، كما قادتني إلى قوافل أصدقائي القدامى ، رجال بني كعب ، والمقابيل ، الذين يتركون الشاطئ الآن متجهين إلى حدائق النخيل في صحار .

وصحبني قائد السفينة هـ . م . س . لويان من مسقط إلى حيث تمنى لي حظاً جيداً ، ثم ودعني قبل أن ينطلق إلى البحر .

وفي الطريق أمامنا رأينا آثار برسي كوكس ، وصمويل زويمر ، مما يشهد على أن الرجل الأبيض قد قام برحلات إلى هنا من قبل .

وجاءني شيخ عجوز يحمل رسالة ، وأمسكني من ذراعي ثم قال لي : « اقرأ هذه » وتقول هذه الرسالة : « بعد السلام ورحمة الله وبركاته ، لقد عاد أخي لتوه وأبلغني بالمعاملة الحسنة التي لقيها عندكم ، وإنني آمل أنكم لن تضروا المسلمين ، وإنما ستعملون ما يرضي الله ويرضيهم ، ومن المحتمل أن يأتيكم بعض النصارى يطلبون أن تقوموا لهم ببعض الأعمال التي قد يكون لها عواقب وخيمة عليكم وعلينا . ولابد من رفض أي عميل ، حفاظاً على كرامة العرب ، وآمل أن لايخدعنكم متاع الدنيا لأنها فانية . وهناك قول عربي مأثور هو : النار ولا العار » .

وقد قرأت الرسالة ، ثم أعدتها إلى الشيخ ، وقد أدخلت الرسالة

الحزن إلى قلبي ، حيث إنى كنت أعتقد أن الطريق إلى الداخل سيكون مفروشا بالزهور ، فالكرم العربي يضرب به المثل فى الحقيقة ، ولكن ليس فى هذه المنطقة النائية من شبه الجزيرة . فالإنسان يخاف هنا ، وهو يرتعب ويشعر بالخطر كذلك ، والبدوى الذى يفاجأ بوصول الأجنبي الغريب يعتبر ذلك بشرى غير سعيدة ، وهو غالبا ما يكون غير مستعد لذلك ، وعلى المسافر هنا أن يكون مستعداً لكل طارئ .

وقد عبرنا بطحة صلان الواسعة ، وتجولنا خلال حديقة من أشجار السنط الكثيفة حيث كنا نرى عن قرب الغزلان من وقت لآخر بخطواتها الرشيقة ، تنتقل من مكان إلى آخر . . وكانت الواحات أمامنا مكتظة بأشجار النخيل ، وبجوار أحد المساجد أمضينا الليل حيث جاءنا الشيخ أحمد بطبق من المانجو ، وقد كنا فى منتصف شهر مايو . وكان البدو فى المزارع يجمعون الثمار ، وسمعنا حفيف الأشجار ، وصوت الثمار التى تسقط على الأرض من وقت لآخر ، فهذه منطقة بنى كعب ، هؤلاء القبليون الذين أتوا من التلال ، والذين تغيروا كثيراً عما كانوا عليه قديما ، فقد كانوا يغيرون على القرى المجاورة ، ولكن يمكن للإنسان الآن أن يعيش فى وسطهم بكل ثقة وأمان .

وعبر السهل كنا نشاهد منطقة الحجر الداخلية . وكانت هناك ممرات تسمح بالانتقال فى هذا السهل المتسع ، حيث تعيش الذئاب والغزلان والحمير أيضا بجوار أطلال مسجد قديم ، هجره أهله إلى الجنوب ، ولم يعد المسجد مزدهراً كما هو الحال فى المحافظات الشمالية والظاهرة .

ويمكن لمن يتجول هنا أن يسمع أصوات المياه فى أنظمة الفلج الجميلة ،

والمنظر هنا رائع .. الفلج ، والجمال ، والبدو ينشدون أغنياتهم الجميلة .. منظر لاينسى ، من يتخيل أن هذه البقعة كانت ميداناً للحروب فى كل العصور . فمن المعروف أن الفرس قد قاموا بغزو هذه المنطقة بجيوشهم ، وهناك الأطلال التى شهدت رماحهم وسيوفهم ، والتى تذكر كذلك بالمآسى وبصيحات المسلمين الأوائل أصحاب العقيدة الجديدة .

وبعد مسافة ساعة من السير فوق طريق قديم — يقال إنه كانت به قديما بعض الثكنات — وتحولت الآن إلى أطلال — وصلنا إلى فلج السوق ، وقد جذبت انتباهى تلك التلال الصلبة ذات الرءوس السوداء ، واستفسرت عن القمم والكتل الصخرية الحجرية الصغيرة وبعض الأكواخ فأجابونى بأنها « بيت جهل » أى أنها منازل أهل عصر الجاهلية .

وقد قررنا أن نتسلق تلك التلال ونقوم بالبحث .

ويتكون بيت جهل هذا من استحكامات ترابية ، تحيط بها أحجار بركانية ، وهى كبيرة بالدرجة التى لا تحتاج إلى بناء ، ويبلغ ارتفاعها أربعة أقدام ، وقطرها من ثمانى إلى اثنتى عشر قدما ، ويمكن القول ، بأن تلك المنازل — أى منازل بيت جهل — كان الهدف الأساسى منها عسكريا بالدرجة الأولى ، حيث إن نظام البناء الذى شيدت عليه جعل كل منها مواجها للآخر ، أو بمعنى آخر بحيث يمكن لكل بيت أن يراقب الآخر للحماية ، وقد يكون هذا أسلوبا من أساليب البناء .

ثم تركت الجمل بجوار أحد الأفلاج ، وذهبت لمشاهدة الأبراج التى وجدت أنها تتجه إما للداخل وإما للخارج لأغراض المراقبة . . إذن فقد كان الهدف من بنائها عسكريا .

وسألت شيخ المقابيل ، من بنى هذه الأفلاج المائية ؟ .

إن الشيخ لم يكن سمينا جداً ، ولكنى لو قارنته بنحافة غيره من البدو فقد كان يبدو سمينا . .

فأجاب سالم دون تردد : إن الذى بناها هو سليمان بن داوود .

ولكنى قلت : إن الملك سليمان لم يأت إلى هذه المنطقة ، خاصة وأن أنظمة هذه الأطلال تعود لقرون سابقة .

فضحك الشيخ من قولى ، وقال : الله يسلمك « لقد جاء الملك سليمان إلى هنا فى موكب على أجنحة الرياح » .

ولكن من الذى قام ببناء هذه الأفلاج ؟ ومن هو العنصر الذى قام ببنائها ، الفرس أم العرب أم غيرهم ؟

فقال : — الله أعلم ، ربما كان من صنع الجان ، وليس من صنع أشخاص مثلى ومثلك .

فقلت وهل تؤمن بالجان ؟ ؟ ؟ فقال : نعم ، هم موجودون بالطبع . . فى الهواء ، وعلى الأرض ، ولكن الإنسان لن يراهم ، بينما رجال الدين هم الذين يرونهم ، ويتحكمون فيهم ، وأما النبى سليمان عليه السلام فقد كان سيدهم .

أما الأفلاج التى كنت أسأل عنها فقد كانت عبارة عن قنوات جوفية قديمة ، ولابد أن جهوداً خارقة قد بذلت لشقها ، خاصة وأنها تمتد فى الجبل فى بعض المواقع إلى مسافة خمسة عشر ميلا .

وهنا يمكن أن نضرب مثلا : فلج السوق ، وواحات العوهى ، ويوجد فى هذا الوادى مئات من الأفلاج على الرغم من جفافها عبر القرون الطويلة .

ووصلنا إلى خور حسن ، وهو جزيرة صخرية ، تتناثر فوقها التلال ، على بعد ثلاثة أميال من قمة جورة برجة ، وقررت أن أتسلق بعض الأطلال التى تحيط بها ، وهى بقايا حصن قديم ، وما زالت هناك آثار لعمائر قديمة وأبراج هندسية كثيرة ، وخزان مربع لحفظ المياه أقيم فى الصخر ، وحائط غير منسق يخترق البناء ، ولا توجد بقايا من أحجار أو نقوش تدل على مهارة ، أوعلى ذوق المهندس المعمارى المدنى الذى أشرف على هذا البناء .

وإذا كانت تلك هى العاصمة القديمة لملوك الفرس قبل الإسلام كما يرى الكولونيل ما يلى ، نقلا عن الروايات المحلية ، فإن جمسترد لا تساوى شيئاً إذا قورنت بالآثار الخالدة التى تركها الفرس ، الذين عاشوا فى نفس الفترة ، والتى شاهدتها فى الخضير فى الصحراء غرب النجف فى الفرات الأوسط ، وفى أم الشتا ، فى مواب ، فى الأردن ، وإلى جمسترد هذه جاء عمرو بن العاص مبعوث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ليدعو عمان للدخول فى الإسلام ، وكانت هناك شجرة صبار بجوار الحصن ، فى صحار ، والتى يقال إن القائد العربى العظيم استراح فى ظلها ، والذى كان مقدراً له أن يحمل راية الدين الجديد إلى ربوع الشام ومصر .

وهناك قصة تروى حول هذا القائد ، وكيف تقابل مع يهودى عجوز على قمة جبل ، حيث كان يعيش بنو إسرائيل فى تلك الأجزاء الغربية من الحجر ، على مسافة يومين بالأقدام ، شرق حوره برجه ، وكان اليهودى رجلا متعلماً ، ورحالة ، قام بزيارة اليمن ونزل بمكة ، وأراد اليهودى أن يداهن القائد عمرو ، ولكنه فشل ، فلم يكن عمرو ليخدع بالكلمات الناعمة التى قالها اليهودى إن «حمداً عظيم — وإن أولاد هاشم كرام . وهكذا» ولكن القائد

الإسلامى عمرو رد عليه قائلا : « إما أن تقبل الدين الجديد الآن ، وإما تدفع الجزية التى يدفعها غير المسلمين ، فأجابه اليهودى بأنه لا يمكنه أن يترك دين آبائه ، ولكنه سيدفع الجزية » .

وهكذا عاش هو وأولاده فى الوضع الجديد يدفع الجزية

ولا زالت هناك جبانة يهودية ، ولكن عندما حل الفقر بتلك الأرض هجرها اليهود ، وتوجهوا للبحرين وبغداد .

وتركنا السهل خلفنا ، وتوجهنا إلى نواحى الجبال المطلة على البحر ، حيث ترتفع إلى ثلاثة آلاف قدم ، متدرجة من عشرين ميلا ، وصعدنا بجمالنا إلى تلك الأجزاء الصخرية .

وتعد تلك الجبال « سلاسل الحجر » عائقاً فى سبيل الاتصال والتجارة ، باستثناء الجزء الذى ينحدر على السهل ، وهناك سبعة مضايق صغيرة فيها ، وفى وادى الجزى ، ظهر أحدها أمامنا ، وقررنا البقاء ، وقضاء الليلة هناك .

وأثناء الليل سمعنا ضحكات وأغانى ، وكانت آتية من مجموعة البدو الذين كانوا يسلون أنفسهم أثناء السير بقوافلهم ، ولكى يخيفوا أى عدو قد يكون متربصاً بهم ، إن وجد .

وفى الصباح اندفعنا إلى أعلى الوادى بالقرب من المدينة ، وتخلفت أنا للفحص الجيولوجى فى تلك البقعة ، عن طريق فحص مكبر لعملية تطبيق المبدأ ، الذى يقوم على أساس ، أن الماء دائماً يحافظ على مستواه أو منسوبه الطبيعى المعروفة بنظرية الأوانى المستطرقة . وذلك للتأكد من

الفترة التاريخية التى قام فيها القدماء ببناء القنوات الواسعة — وكانت آخر أسرة فارسية قد أقصيت من البلاد فى مستهل القرن الثامن .

وهذه القنوات تعتبر نظاما دقيقاً للرى حيث يتدفق الماء على امتداد الضفة إلى ارتفاع ٢٥ قدماً ، ماراً عن طريق أنبوبة ، أو ممر ، من خلال أسطوانة ، ثم ينحدر إلى أسفل ، وهكذا تقابله أسطوانة مماثلة أخرى على الجانب الآخر حيث يتصاعد الماء إلى نفس العلو .

وقد تمكنت من اللحاق بالموكب عند برج الشخيرى ، حيث يوجد حصن صغير داخل الوادى ، الذى يحدد حدود مسقط . وفيما وراء هذه النقطة فإنى أعتبر دخيلا أو متطفلا ، وحتى هنا سمعت دمدمة دلت على أن الاستقبال لم يكن مشجعاً ، وأن بعض الطلقات قد مرت فوق رءوس بعض رفاقنا ، لدرجة أنهم ترجلوا ، اعتقاداً منهم بأن الحيطة خير من الشجاعة .

وهنا صاح رفيقى : سيدى ، لا يمكن أن نواصل الرحلة ، فمنطقة الوادى محفوفه بالمخاطر ، ثم فتح رسالة من شيخ قبيلة الشوامس التى ينتشر أفرادها عبر الوادى ، وهكذا أصدر الشيخ حمدان أمراً يمنعنا من التقدم بدون موافقته ، غير أنه جاءنى فى أعقاب الوقفة التالية رد لرسول بعثت به إليه ، ودار بيننا حديث من القلب إلى القلب ، وكان ودوداً معى . غير أن وده كان مشوباً بالمرارة ، ولا غرابة فى ذلك فقد كانت قبيلته ارتكبت بعض المخالفات ، واعتقل هو ووالده . غير أن حمدان هرب من السجن ، كما أن أحداً لم يعثر على والده ، فقد سقط من على الجدار ومات .

وفى اليوم التالى استأنفنا الرحلة ، فوصلنا إلى واد ضيق ، يسمى وادى شماس ، وكانت تلك المنطقة أشبه بالكمين الطبيعى . وفجأة توقف ركبنا ، وسمعنا صيحات أمامنا ، ورأينا رجال الشيخ حمدان يهرولون إلينا حاملين بنادقهم ، وارتقوا إحد المرتفعات ، مصوبين بنادقهم علينا ، وقد مرت فترة من التخبط والفوضى على المكان إلى أن أمسكت شيخهم من يده وقدمناه لنتأكد من الأمور ، ولكى نطمئنهم ، وقد شرح لى الشيخ فيما بعد ، بأن الهدف من الموقف العدائى هو وجود شخص معين بين رجالى ، غير أنى اعتقدت بأنى اكتشفت محاولة من جانبهم لمنعى من الاستمرار فى مهمتى ، وهكذا تأخر وصلنا الى الجبل حتى غروب الشمس .

ورغم أنه لا توجد أنهار فى شبه الجزيرة العربية كلها إلا أنه يوجد نهر بالقرب منا ، ففى قمة الجبل يوجد نبع لماء جار يتفرع منه جدول صغير ، لا يقل عرضه عن عشرين قدماً ، يجرى متلوياً عبر الصخور ، ولا يتوقف إلا فى حالة السيول الجارفة نتيجة الأمطار ، التى تهطل فى فصل الشتاء ، من طرف إلى آخر عبر الوادى ، الذى يمتد مسافة مائة ياردة . وعلى الجانبين ترتفع تلال كثيرة ، تتدفق المياه من خلالها لتتصل إلى الجدول الرئيسى .

وفى هذا المكان تتراكم قطع ضخمة من الحجارة مرصوص بعضها على البعض داخل الوادى ، وتغطيها الرمال والحصى التى جرفها السيل ، بالإضافة إلى أوراق الشجر السام .

ويوجد هنا أيضاً فلج فى الجبل ، يختلف عن الأفلاج الجوفية التى تقام عادة فى السهول ، فهو يمتد على السطح ، ثم يرتفع عبر الوادى من خلال

قناة سطحية ، تنحدر فى لين على ضفة الوادى ، حيث تنتشر مزارع النخيل والقرى على جوانب الجبال ، وهناك الظلال الجميلة التى تذكر الإنسان بفلسطين ، حيث الذرة ، والقطن ، والدخان ، والزهور ، والمانجو ، وأشجار الليمون ، وكل ما يجعل الهواء معبئاً برائحة جميلة .

ويعتبر الجبل واحداً من تلك القرى التى قد أدهشها مجيئنا ، وطالب شيوخها بمقابلة معنا فى الحال ، ولكن الوقت كان متأخراً ، وكنت متعباً للغاية ، وكان لى معهم حديث فى الصباح ، حيث وصلت تعليمات للجبل من شيخ النعيم فى البريمى ، لمنعى ، وكان القرويون طيبين للغاية معى ، ولكن عليهم أن يتبعوا تعليمات شيوخهم .

ولم أكن أنوى البقاء هنا ، فعند طلوع الفجر خرجت إلى الوادى الرئيسى ، إلى وادى عبيلة ووصلت منه إلى نجد ، حيث اضطررت إلى إقامة معسكر ، لأن السكان رفضوا التقدم ، خوفاً من أتباع شيخ النعيم ، إلا بعد أن يرسلوا رسالة لدعوتنا ، وأصبحوا الآن قليلى الصبر ، وسرت أنا وأحدهم لمسافة ميل ، وصعدت تلا صغيراً ، حيث رأينا الرمال الواسعة « جبل حفيت » .

وسألت ما هذا الحفر ؟ حيث كان هناك حفر جيولوجى قديم فى الصخر الأحمر .

ورد البدوى . الله أعلم .

وتعجبت ، هل كان هناك بحث عن الموارد المعدنية أيام الجاهلية .. ؟ لأنه من الممكن أن يكون منجم نحاس .

وجاءنى حينئذ خطاب من البريمى يحذروننى فيه وينصحوننى بالعودة ،

لأنى أصبحت الآن تحت سيطرة ابن سعود وفى أراضيه ، وأنهم يخافون على منهم ؟

وقد قام أولاد ابن سعود بحصار معسكرى وإطلاق النار ، واستعطفنى الرجال بالعودة إلى صحار ، وحملوا بنادقهم ، وكان قلبى مفعماً بالأحزان وكان الطريق إلى البريمى مغلقاً .

وكنت قد جئت من ممر جانبى من هذا الطريق ، وللأسف فقد أغلق حتى بنو كعب أبوابهم على أيضاً ، بالرغم من علاقتى بشيوخهم وكرمهم معى فى البداية ، ولكن الشيخ الصديق فى الجزيرة العربية لا يكفى رغم أنه يساوى نصف المعركة ، فهو يقول لك « أى والله » ثم يتركاك ، وهنا تسود روح الفردية ، فهو لا يفعل ما يمليه رأيه وضميره ، ولكنه يتبع ماحوله ، والإنسان هنا لا يفهم الديمقراطية .

وسألت نفسى ، ما العمل ؟ وقد طردنى « حمدان » من قريته ؟ ؟ وفكرت لبرهة ، ثم قررت أن أذهب إلى قطنة ، وهى قرية جبلية مثل الجبل بالضبط ، النخيل والمجارى ، والقنوات ، وأكواخ القرويين ، والجبال والصخور كلها حصن ، ومسجد يرتفع خلفه ، كل ذلك كان مألوفا لدى ، وهنا يعمل الرجال تحت أشجار النخيل .

ولا تعرف القرية شيئاً عن الطب الحديث فى العالم ، وهناك الجراحون الذين يمسكون السكاكين بأيديهم ، ولا يعلمون شيئاً سوى مكان العظام فى الجسم ، ولايعرفون سوى القطرة والكى ، وهنا تنتشر الملاريا » :

وهؤلاء الناس مثل الأطفال ، بطبيعتهم ، فرغباتهم قليلة ، والحاجات السريعة العاجلة هى التى تستحوذ على اهتمامهم ، وهم لا ينظرون للمستقبل

أبداً ، وقد كانوا يتجمعون حول خيمتى لأخذ القهوة ، ويتبادلون الأخبار والشئون المحلية ، وللقهوة اعتبار كبير عند البدوى ،وبعد أيام شعرت باليأس ، فدرجة الحرارة وصلت ١١٥° فرنهيت فى الظل والمكان قاس ، وإمكانية الخروج والعودة صعبة .

وشعرت أن السفر فى الجزيرة العربية يعلم الفلسفة والصبر ، وقد كانت هذه هى السمة الأساسية ، وتذكرت ما حدث لرحالة مثلى منذ ثلاثين عاماً فى هذا الجزء من عمان ، فقد ظل « سيركوكس » لمدة أسابيع كاملة يقيم على أبواب عمان قبل أن يدخلها .

وفى الصباح امتطينا الجمال مرة أخرى فى طريقنا نحو الشمال إلى محضة وفى الطريق قتلنا ثلاثة ثعابين ، ووصلنا إلى راحات محضة ، حيث السهل والنخيل والحصن ، وقد كان استقبالهم لنا استقبالا بديعاً ، بالرقص بالسيوف ، وحلقات الغناء ، وكانت الطبول مستمرة ، طيلة أربعة أيام ، وهى لا تدق إلا للحرب أو للغزو ، وكان كل القرويين يرتدون دروعهم وبنادقهم وخناجرهم ، وقد وقفوا فى صفين ، وأمامهم فرقة موسيقى بالطبول والأعلام المرفوعة .

وأثناء ذلك صحبنى الشيخ سالم من يـدى إلى حجرتى فى الحصن . وسألت الشيخ ، ما هذه الموسيقى العسكرية ؟

فغير الشيخ الموضوع قائلا : سيصحبك علىّ غـداً إلى قمة جبل محضة .

وهذا الجبل يرتفع فوق القرية إلى مسافة ألف وسبعمائة قدم . وقد استغرق صعوده ساعتين ، ولكننا نسينا التعب عند رؤية المشهد البديع الذى

تطل عليه قمة الجبل ، الذى يرتفع فوق سطح البحر بثلاثة آلاف وأربعمائة قدم .

فقد كان هناك حصن البريمى ساطعاً فى الشمس ، وكذلك السهل والرمال الذهبية ، ونزلنا من الجبل .

وكان هذا اليوم هو يوم رحيلنا ، واتخذنا طريقنا عبر الساحل المهادن فوق الرمال الذهبية مروراً بالربع الخالى ، وبنى قتب .

الفصل الرابع

رحلة مع جلالة السلطان
عبر الشميلية

تعتبر صحار المدينة الثانية بعد مسقط من حيث الأهمية السياسية ذلك أن هذه المدينة بمينائها البحرى قد تغنى بأهميتها وبثرائها الجغرافيون العرب القدماء ، وذلك قبل أن تظهر مسقط إلى حيز الوجود ، كما كانت سوقا للفاتحين الفرس الأوائل الذين جاءت طلائع الجيوش العربية لتقتلعهم منها ، رافعة شعار : اتركوا ما تعبدون وادخلوا فى دين الله .

كذلك كانت صحار ميداناً للتنافس والصراع لكل مطالب بالحكم يحاول أن يوطد نفوذه فيها .

وتحت القلعة يوجد ضريح السيد ثوينى الذى كان الحاكم وقت وصول الرحالة « بلجريف » إلى المنطقة .

ولكن صحار اليوم ليست إلا ظلا لماضيها القديم ، بل حتى شمسها المجيدة ذهبت ، وربما كان يراها الناس من خلال مناظير ملونة منذ ستين عاما .

وقد ارتبطت صحار بروابط تجارية وثيقة مع دبى ، مركز تجارة اللؤلؤ المزدهرة والمدينة الشابة .

وفى المساء صحبت السلطان عبر الشاطئ وراء الدعامات المتداعية الشمالية الشرقية ، من سور المدينة للاجتماع التقليدى ويسمى » البرزة « .

وفى المساء شاهدنا رقصات البدو الجميلة بجمالهم ، وكان البدو يرحلون بعد أن يحظوا بكرم مستقبليهم ، والبدو دائما يبحثون عن الشهرة والعطايا أكثر مما يفقدون هم أنفسهم .

وبعد أن دارت أكواب القهوة قمنا ، وتجولنا حول حافة خندق كان يحيط بأسوار المدينة القديمة ، ورأينا ماسونية قديمة ، وعمدا قديمة كانت لاتزال فى مكانها ، وكذلك قوالب الطوب المربعة الصغيرة ، التى تدل على فن المعمار فى صحار ، ولا يوجد لهما مثيل فى أى جزء آخر فى الباطنة ، وهى معروفة لدى اليهود .

وفى الطريق عبر المدينة مررنا بحصن قديم ، شهد ثلاث فترات تاريخية ، وقد وجدنا نقوشا على بوابته عليها الاسم والتاريخ . لطف الله ١٢١١م . وهذا الحصن هو مقر الحاكم سعيد بن أحمد ، شقيق السلطان ، وهو شخصية عظيمة ، وهو مضيف كريم .

وتنتشر هنا وهناك منازل قديمة من الطوب المحروق ، وقد شاهدت السحب تتلون من وقت لآخر ، مرة زرقاء ، ومرة حمراء ، وكان مبروك هو صديقى فى الرحلة ، وقد كان هو القصاب والطاهى الخاص بالرحلة ، وكان مبروك من المقربين للسلطان فى مسقط ، وعندما أصيب مبروك بجرح فى ذراعة أصر جلالة السلطان على إرساله للعلاج على يد طبيبه الخاص فى مسقط .

وكان سيف أفضل من يقرأ الشعر ، فلديه الإحساس العميق بفنون الدراما ، وأظن أنه يمكن أن يكون ذلك هو مفتاحه إلى هوليوود ، وليس

إلى صحار ، وقد كان يقرأ بعد كل عشاء شعر المتنبي ، وكان هناك الغناء ومجموعة من الناس تردد الغناء ، وقد سجلت ثلاث أغان ، ثم سمعت المداحين ينتشرون عند صلاة الفجر ، وبعد الفجر ، يقرأون القرآن .

وكانت ليلة عظيمة .. فقد كانت نسائم الهواء الباردة تهب على المكان ، والقمر يتلألأ وسط النجوم فى السماء ، وكان كوكب الزهرة يتلألأ والبحر يطل بروعته على الشاطئ الممتد .

وحان وقت النوم ، وقررت عدم القراءة تلك الليلة ، حتى نستريح لبداية اليوم التالى .

وفى الصباح كان الشاطئ مليئا بالبدو والجمال ، والصخب التى كان المعسكر يضج به ، وجه أحد السحرة كى يرى جرح مبروك ، وجلست مع هذا الساحر الذى قرأ لى طالعى ، وكان يقرأ بعض التعاويذ الدينية التى قرأ مثلها لمبروك ، وخلال أسبوع توفى مبروك ، وساعتها قال السلطان إنه قدره « لكل أجل كتاب » . « ولكل أجل يوم وساعة ، ولا يمكن الهرب منها لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وقد كان الطريق إلى الشميلية أمامنا شمالا .. وكنا نركب الدواب ،وفى هذا الطريق ، حيث حدائق النخيل ، كان البحر يحوطنا من جانب ، والجبال من جانب آخر ، وكانت أشعة الشمس فى ذلك اليوم لامعة ، وكانت جبال الحجر واقفة مكانها خلف السهل ، بينما كانت أشجار النخيل تزداد كثافة ، كلما تعمقنا فى الطريق أكثر ، وخلال الكثبان الرملية كان البقر يتجول هنا وهناك ، وكانت الحمير تسير وراء أسيادها ، وبينما كنا نتجول خلف الأطراف الرملية لأشجار الحرمل إلى حدائق النخيل فى

لوى ، مررنا على سهل به أشجار الصبار ، وبعض الجمال التى تبحث عن الغذاء ، ومع أن لوى قرية صغيرة ليس بها إلا بعض أشجار النخيل إلا أنها هى مقر الوالى .

وفى الطريق سمعنا أصوات الطبول ، وطلقات البنادق تحي جلالة السلطان ، الذى رد عليهم بعد أن ترجل عن دابته .

وهنا جلسنا عند بوابة الحصن مقر العدالة ، لاستقبال المهنئين .

وجاء رجلان يركبان الجمال . . وكان أحدهما ضريرا ، فدهشت كثيرا .. وقلت للسلطان : كيف يركب هذا ؟؟

فأجاب الوالى : إن هذا الضرير هو عبد الرحمن ، وقد أغار مرة على منطقة الشميلية حيث نصبوا له كمينا ، ثم وضعوا سيخا فى عينه ، وهكذا عاد إلى قبيلته ضريرا .

وفى الطريق وصلنا عبر السهل المالح إلى شناص ، بحصنها القديم على الأرض البور ، وهناك عيون مائية ، وكان هناك خور ، عبارة عن بحيرة تمتلىء بماء البحر فى وقت المد ، والوالى هنا هو السيد محمد بن هلال ، وهو بطل لمعارك كثيرة ، وبفضله هدأت مشاحنات وغارات بنى كعب وبنى قتب ، ولم يعودوا إلى شن غاراتهم منذ أن جاء السيد محمد بن هلال.

وكانت هناك حجرة فى الحصن خاصة بجلالة السلطان ورفاقه ، ولذلك فقد عسكر مرافقونا البدو فى السهل تحت الأسوار القديمة ، وسمح لى جلالةالسلطان بمشاركته الحجرة وتمتعنا بنوم هادئ .

وقد لاحظت أن جلالة السلطان متمسك بأداء الصلوات فى أوقاتها ، والمسلم يصلى خمس مرات يوميا ، والطوائف المختلفة فى الإسلام لاتختلف

فى صلاتها ، اللهم إلا فى بعض التغييرات فى الحركة ووضع اليدين على الجسم .

والوضوء ضرورى .

وقد سألت جلالة السلطان ، ماذا عن البدو الذين لايجدون الماء فى الصحراء ؟؟ فقال لى : إنهم يتيممون ، فيضربون التراب بأيديهم ثلاث مرات ، ثم يضعها كل فرد منهم على وجهه ثم يضرب ثانية ليمسح يديه ، وذلك هو التيمم .

وعلى الطريق ، خلال حدائق النخيل المرتفعة على الشاطئ ، وجدنا مساحات واسعة من أشجار الدخان ، تنتشر على الجانبين ، وتعد الشميلية من أكثر المناطق إنتاجا للدخان فى جنوب شرقى الجزيرة ، ويأخذ منها مدخنو دبى والبريمى حاجاتهم .

ولم أجد أى عربى يشرب الخمر ، فلا يوجد كحول هنا لأنه يذهب بالعقل ، ويعرض شاربه للإثم وربما القتل .

ثم شممنا رائحة عطرة أثناء تجوالنا هنا فى الدرب حيث الأشجار ، وتوجد هنا بعض أشجار السنط كذلك ، وهناك نوع من الشجر يسمى « أشجار الجبن » .

ووصلنا إلى ميناء تصدير الدخان « بوبقرة » حيث تنتشر القوارب على الشواطئ ، وتبدو على هذا الشاطئ وحده كل الطوائف الإسلامية فالتجار الفرس ، إما شافعيون أو شيعة ، ويدين البلوش بالمذهب الحنفى أو المالكى أو الحنبلى .

ويلاحظ هنا ، بل فى عمان كلها ، حرية استعمال الطوائف للمساجد ويتم إلقاء دروس فى المساجد .

وفى الليل كان البحر رائعا ، وتكاد أمواجه أن تلامس أقدامنا ، حتى إنه قد أغرانا بالسباحة رغم وجود كلاب البحر فى هذه المياه ، ولابد أن غطاسى اللؤلؤ لايرهبون هذه المياه المليئة بكلاب البحر .

وفى الحال خرج اثنا عشر عبدا للسباحة وكانت المياه دافئة وجميلة فى تلك الليلة ،وفى اليوم التالى تحركنـــا عبر الشاطئ إلى المرير حيث كان ساحلها يمتلئ بأشجار النخيل ، وكانت الجبال على يسارنا .

وهنا أراد جلالة السلطان أن يستريح ، بينما قمت أنا مع ستة من البدو لاستكشاف خطمة ملاحة حيث تنتشر الأحجار والصخور حول الساحل محددة نهاية السهل الذى جئنا منه ، وموضحة الحدود مع عمان المتصالحة « المهادنة » .

وتمتد الجبال حتى ترتطم بالساحل قريبا من خور فكان ، وهى الحدود القديمة إلى الشمال ،ولكن هنا فى خطمة ملاحة تخرج بعض الرءوس الصخرية من الجبال وتطل على الساحل ،وهى تصنع زاوية قائمة مع شاطئ البحر ، وتمتد هذه النقطة من دبى ، حيث يوجد القواسم ، آخر امتداد لهذه القبيلة على ساحل اللؤلؤ ، التى تشكلت فيه أول حكومة إباضية ، فى القرن الحادى عشر ، فى فترة حكم السيد سعيد العظيم .

وفى دبى تبدأ منطقة رءوس الجبال ، وتوجد بلدتان صغيرتان ، هما كلبا ، والعجيزة ، وقد سرنا حتى خرج إلينا شيخ كلبا ، ودعانا للنزول كى يستقبلنا فى بلدته .

وتسلقنا أنا والسيد سعيد خطمة ملاحة ، ونظرنا إلى أسفل ، حيث رأينا الحدائق والعبيد الذين جاءوا يقطعون الأخشاب ، والقرى المنتشرة

والقليل من الآبار بعضها قديم لا يستخدم الآن . . ولاشئ يلفت النظر فى هذه البلدة سوى برج مراقبة حديث العهد .

وبين العجيزة وكلبا حدود متفق عليها ، وهناك أربعة أسوار وقريتان صغيرتان تعملان بالصيد ، هما زادنة وخور فكان ، وهما فى نطاق كلبا . وقد تركنا كلبا واتجهنا لوادى « الرأس » وهو الحدود التاريخية للمتنازعين وأقمنا هناك ليلة .

وفى اليوم التالى وصلنا إلى العجيزة ، وللعجيزة سمات مميزة عن بقية القرى ، فهى تقع وراء الجبال بشكناتها الطينية ، وحصن الشيخ القديم على صخرة عالية فى حالة مؤسفة ، وهو يحتاج إلى حصن من جديد .

وفى اليوم التالى تركنا العجيزة عائدين إلى خور كلبا ، ومنها سرنا فوق التلال وراء خطمة ملاحة ، حيث كان من المقرر أن نزور قبيلة بجوار بلدة شناص ، وفى ساعتين كنا فى وادى القور ، فى الجزء العكسى الذى تقع فيه قرية « أسود » ومررنا بواحات الفلج ، وبقرية عجيب . حيث أشجار السنط الكثيفة ، وعند الخروج منها بهرنا منظر الحدائق الجميلة والأشجار العالية .

وسرنا فى الوادى حيث النخيل يرتفع على الجانبين ، وعند الاقتراب من نهاية الوادى بدأ الطريق فى التحسن ، وبدأت وعورته تختفى .

وبمجرد عودتنا كان جلالة السلطان قد بدأ يشعر بأغراض الحمى ، وكذلك معظم البدو الذين كانوا معنا ، أما أنا فأحمد الله أنى عدت سالما ، ولم يصبنى حتى الصداع ، وكان الجميع فى دهشة لهذا الأوربى المحظوظ .

الفصل الخامس

رحله العـــودة

وفى طريق العودة مررنا بالقصير التى تقبع أسفل جبال الحجر ، فى الخلف ، وراء ، صحم ، حيث كنا قد اتخـــذنا طريقاً آخر فى رحلة العودة .

ومررنا بواحات تحتوى على أشجار نخيل قليلة العدد ، حيث يعمل اثنا عشر رجلا من القرية ، فى حقول قصب السكر ، ويبدو على الحصن الموجود فى هذهالقرية أنه قد شهد أياماً عظيمة ، ويدل أمره الواقع على أن أبوابه ومبانيه يبدو أنها تعود لفترات مبكرة أبعد تاريخاً من كل حصون الباطنة ، وهنا يجرى فلج ، تعيش فى مياهه بعض الأسماك الصغيرة ، وقد وقفنا نروى أجسادنا منه ، بعد ذلك السفر الساخن ، ووقفت بجواره أنا وجلالة السلطان نشاهد الغزلان .

وفى الصباح أخذنا نسير بجوار فلج الصحيمى حيث كان الجو حاراً ، وكان الفلج دافئاً فاسترحنا لفترة قصيرة ، ثم سرنا عبر السهل الصخرى إلى الخابورة ، وهناك رأينا حصناً بنيت أسواره من الطمى كحصون الباطنة كلها ، ومررنا بالبدو ، وشاهدنا حلقات الرقص والغناء ، وأخذ البدو يشكرون جلالة السلطان ، ويمتدحون اليوم الذى ولد فيه .

وفى وادى ظبيان أقمنا ليلة ، ثم رحلنا فى الصباح ،ووصلنا إلى المغزاء

« وهى قرية بديعة غناء . . كلها حدائق ، وتقع على بعد ميلين من قرية بديعة غناء : . كلها حدائق ، وتقع على ميلين من قرية صيد اسمها بنفس الاسم ، وقد سعدنا بالكرم الرائع ، والضيافة التى قام بها الشيخ خالد ، وتناولنا عشاء رائعا ، تبعته القهـوة ، ثم خرجنا إلى حيث توجد غابات السنط — فى تلك المنطقة — تحوطها الحقول الخضراء المليئة بالبرسيم والبطيخ ، وهناك شوارع صغيرة للغاية داخل القرية .

ثم وصلنا إلى وادى قاسم الذى يعتبر حدوداً لأرض يال سعد ، حث استرحنا ، وتناولنا وجبة من الحلوى ، وحينئذ جاء الشيخ محمد من قبيلة بنى حسن — وهو يحمل رسالة لجلالة السلطان من الزعيم فى الداخل ، الشيخ عيسى بن صالح ، وكان فى الرسالة مشكلة تحتاج من السلطان حلا لها :

ثم ذهبنا إلى « السيب » ذات الحدائق الغناء ، واستمتعنا بكرم الضيافة فى منزل والى مطرح ، ثم رحلنا فى اليوم التالى متتبعين أشجار النخيل إلى نهايتها فى الجبل « موقع معسكرنا » . ثم سرنا على الشاطئ حيث يكثر السردين الذى وضعوه فى الشمس لكى يجفف ، ورأينا الجبال التى تقع وراءها مسقط ، وعن طريق الخوير استدرنا ، ووصلنا إلى معسكرنا فى أطفير عبر التلال الرملية ، وجلسنا بجوار أشجار السدر .

وبعد قضاء ليلة استمعت فيها بالأحاديث الشيقة مع جلالة السلطان ، والاستماع إلى القصص الرائعة الطريفة التى كان يقصها علىّ من التراث العمانى القديم امتطينا جمالنا مرة أخرى فى الصباح ، حيث كان اليوم هو موعد دخولنا مسقط عُمان ، وكانت الجمال فرحة تخطو خطوات رشيقة ، وهى تسير على أغانى وصيحات راكبيها ، خلال الكثبان الرملية للخوير ، وقد كانت حدائق النخيل ممتدة ناحية الجبال تجاه روى ، وهناك يقع حصن

بيت الفلج على الطريق ، وبعد مدة من السير نزلنا من أعلى إلى مطرح ، التى كانت تغرد كلها فرحاً لمقدم الحاكم العائد.

وعلى الطريق البحرى الجديد عبر الساحل إلى ريام سرنا حيث وصلنا إلى منازل مسقط البيضاء ، ومن خلال البوابة القديمة دخل السلطان إلى مسجد أبيض البناء بالقرب من قلعة الميرانى ، وبعد خروج السلطان من المسجد توقفنا حيث خرج البدو لتحية السلطان راقصين بالسيوف على دقات الطبول ، وكان من حولنا رجالنا البدو الذين لفحتهم شمس الرحلة ، وعطش الصحراء ، وقد ذهبوا سريعاً لتغيير نقودهم « تحويل العملة » والحصول على حاجاتهم ، وبينما كنت أرنو ببصرى إلى هذا المشهد الذى سأودعه الآن وصلت إلى سمعى موسيقى عسكرية حربية كانت تدق هناك .

القسم الثاني

المغامرة

طبول الحرب

في

مسندم

الفصل الأول

المخاطر

تجمعت سحب العرب فوق شبه جزيرة مسندم ، ولقد مضى أكثر من شهر منذ أعان سكانها الشحوح التمرد على السلطة ، وقد تحول العصيان إلى وحشية . ورفض شيخهم حسن قبول أية تسوية ،وأعلن تحديه ، وقال : إنه صاحب كل السلطة ، وهو السيد على أرضه ، وكان هذا هو سبب المشكلة .

وذات يوم وصلت سفينة الأبحاث هـ . م . س أرموند من الشاطئ ، وجاءت تحمل خططاً وأبحاثا ، وكان بها فريق صغير العدد ، وعليها أعلام تفيد أنها سفينة أبحاث .

وعند رسوها رفض الشيخ حسن أن يسمح لها بممارسة مهمتها ، قائلا : إنها أرضنا ، وليست لكم ، وما ستقومون به ليس له فائدة عندنا ، وعلى أية حال فنحن لا نقبلكم على شواطئنا :

غير أن الربان ، التزاما منه بالإجراءات القانونية ، أبرز رسالة ، ورد على الشيخ قائلا : وهذه هي أوامر لكم من السلطات العليا فى مسقط ، التى تخضع هذه المناطق لسلطتها ، وهى أوامر تسمح لنا بممارسة مهمتنا .

لكن وعلى أية حال فالواقع أن القوى التى كانت تتحكم فى الموقف هى التى أدت إلى ظهور تلك المشكلة .

ومسندم ، أو رؤوس الجبال ، كما تسمى هذه المنطقة كلها ، جزء من سلطنة عُمان ، وفى هذه المنطقة تعيش عناصر من السلطنة تتسم بالقوة والعنف ، وهم قبيلة الشحوح ، الذين بحكم بعدهم ووعورة منطقتهم يتمتعون بشىء من الانعزال يعتبرونه لوناً من ألوان الاستقلال ، فى اتخاذ المواقف .

والتركيب القبلى فى هذا الجزء من السلطنة ذو طبيعة عسكرية ، وهم يرفضون أى نوع من النظم الحكومية المعروفة ، كما أن هذه المنطقة تشكل نموذجا للأقاليم الشرقية البعيدة ، كإقليم كردستان ، بالنسبة للإمبراطورية العثمانية ، وإقليم الحدود الشمالية الغربية بالنسبة إلى الهند . وهكذا ما إن تضعف السيطرة المركزية فى مثل هذه الأقاليم ، وبأى سبب من الأسباب ، حتى تنفجر هذه الأقاليم بالتمرد والخروج على السلطة ، وهكذا يتكهرب الجو وتسيل الدماء . ومثل هذه المواقف لست لها أسباب سياسية بالمعنى الأيدلوجى للكلمة ، أى أن مثل هذه الأقاليم ليست لها مطالب قومية على الإطلاق ، وإنما ينشأ هذا الموقف من تقييم خاطئ للواقع ، يؤدى بالناس فى لحظة من اللحظات إلى أن يفعلوا شيئا ما ، إذ كان لابد من الشعور القبلى أن يعبر عن ذاته .

وإذا كان الفرد الأوربى يعتقد أن الحكومة أمر لابد منه ، فإن ذلك يبرر إلى حد ما لرجل القبيلة أن ينتفض على السلطة ، فالقبلى لا يكن احتراما فطريا للنظام والقانون وإنما العكس هو الصحيح ، كما أن العدالة والمساواة بوصفهما إعتبارات مجردة لاتتأثر باهتمامه ، فضلاً عن أن مظاهر الحياة المدنية وأجهزتها مثار احتقاره وسخطه .

ومن ثم فإن الرجال المسئولين عن إدارة شئونه لابد وأن يقدروا فيه تلك الصفات ، وأن يدركوا أيضاً أن القبلى يعبد القوة دون سواها، وأنه فى المدى البعيد لابد وأن يتلاءم بشكل أو آخر مع أشكال الاقتناع بالوضع ، أى بالتهـــديد بالقوة، وإذا تعذر ذلك فبالحقائق ، وإذا ما تجردت أنت من مظهر القوة فإنه قد يسلبك أموالك أو حياتك إن استطاع .

أما بالنسبة لقبيلة الشحوح فإن هذه الاعتبارات لم تكن قائمة فى ذلك الوقت ؛ فالتمرد الذى وقع فى المنطقة كانت دوافعه من الخارج، وهذا ما عرفته من أحد الشيوخ المقربين من مسندم ، والذى كان يعتبر من أكثر الشيوخ ثقافة واستنارة . وفى أعقاب الحرب العالمية كانت الصحف المصرية، والهندية ، والعراقية التى تعالج الشئون السياسية بدأت تنتشر فى عمان ، وكانت النافذة التى تطل منها أنباء الاضطرابات فى العالم على أسماع أهل عمان .

أما السبب الآخر فى الاعتراض على وجود السفينة أرموند فيكمن فى الكره لكل ما هو أجنبى ، ولعل العزلة التى تعيش فيها قبائل شبه الجزيرة العربية تفسر أسباب قلة عدد الرحالة الأوربيين فيها .

وعلى أية حال فإن موطن الشحوح منطقة محظورة على الأجانب ، حتى إن أى أوربى لم يجرؤ على اختراقها ، ولا حتى التجار الهنود الذين تعج بهم مناطق الساحل العمانى فى سلطنة عمان قد استطاعوا أن يستقروا ، أو يجدوا لهم مكانا فيها .. فرجل القبيلة البدائى يقسم البشر إلى قسمين . المسلمين ، والمشركين .

وأما نظرية التسامح تجاه المسيحيين ، أو اليهود باعتبارهم من أهل الكتب السماوية ، فإنها تقتصر على رجال الدين ، أما البدوى فلم يعرفها

قط ، وإنه بالنسبة للسفينة أرموند فإن رجالها من الصنف الثانى ، ولو كان هناك زعيم أقل تطرفا من الشيخ حسن فلربما فكر فى العواقب ، غير أن حسن كان يرى أن مركزه معرض للخطر بين أتباعه .

إن القلعة السفلى التى كان يقيم فيها شيخ المنطقة كانت محجوبة عن البحر ، ولم يكن يبرز منها إلا استحكاماتها الصفراء اللون ، وكانت تبعد عن الشاطئ بنحو ميل واحد تكتنفها خمائل من أشجار النخيل ، كما تحيط بها أكواخ عديدة لأهل القرية .

وفى إحدى الليالى كانت هذه القلعة هدفاً لمجموعة من الناس الذين نزلوا إليها من إحدى المراكب الشراعية ، فى نهاية شهر يناير تقريبا . ولم يكن هناك أحد أو شىء يمكن أن يعترض طريقهم فيما عدا أنقاض قلعة قديمة ، كانت تقوم بحراسة المكان . وكانت هذه القلعة تقف شاهدا على أحد المغامرين البرتغاليين من عهد دريك . فقد انقضت ثلاثة قرون بالضبط منذ أن اتخذ الأدميرال روى فريردا أندرادا من هذه القلعة قاعدة لشن عملياته العسكرية ضد هرمز ، وتحت هذه القلعة كانت حركة الجزر سريعة بحيث تكشف عن شاطئ رملى لايقل طوله عن ألف ياردة .

وعلى الشاطئ كانت السفينة أرموند تلقى بمرساها فى الماء ، اتقف أملا فى الحصول على تصريح بممارسة مهمتها الأساسية .

وفى اليوم التالى جاء الحل ، فقد وصلت رسالتان ، إحداهما من صالح بن محمد شيخ دبى ، وكانت معنونة باسم الشيخ إبراهيم بن محمد ممثل الوزراء وجاء فيها :

بعد السلام ورحمة الله وبركاته ، كتابكم الكريم قد وصلنا ، وفهمنا ما تضمنه ، وبالأخص عن وصول البارجة إلى خصب ، وليكن معلوما لديكم أيهـا الأخ أننا لن نسلم مناطقنا لأى شخص إطلاقاً . لا الضعيف ولا لأى شخص آخر . أما بخصوصكم فإنكم لستم ملوكا علينا حتى تبحثوا فى أحوالنا ، ولهذا نرجوكم ، أن تؤجلوا العملية ، وأما إذا وصل السلطان السيد تيمور إلى مسقط فإننا سوف نتبعه لنرى ماذا سيفعل وزراؤه فى الموضوع ، هذا مالزم »

والسلام عليكم .

٢٨ يناير ١٩٣٠

إمضاء: صالح بن محمد الشحى

وأما الرسالة الأخرى فقد كانت من حسن بن محمد شيخ خصب ، وموجهة إلى كل من السيد ناصر بن خلفان والى خصب ، وإلى الشيخ إبراهيم ابن محمد بن جمعة مندوب مجلس الوزراء .

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

« لقد أبلغتنا القبيلة بصورة عامة وخاصة ، أنكم قد قررتم رفع علمكم على رءوس الجبال ، ولـكن هذا غير ممكن الحصول على موافقتهم ، سواء ودياً أو مقابل أى ثمن ، ولهذا نرجوكم ألا تكلفونا بما لاطاقة لنا به ، ونقدم اعتذارنا لكم ، ولاتنتظروا من الجماعة أن يرافقوكم صباح الغد إلى المناطق التى ترغبون فى الوصول إليها ، ونحذركم من ذلك ، وليكن معلوما لديكم ، أن بودنا أن نساعدكم فى الوصول

إلى ماترغبون حتى تتمكنوا من إرضاء الحكومة والمسئولين فيها غير أن كثرة الماء تفسد الدقيق .

وسامحونا .   إمضاء

حسن بن محمد الشحى

لقد كان الخطابان يتحدثان بلغة واحدة ، ويحملان نفس التاريخ ، غير أن لهما أهمية أكبر ، فقد كانا يحملان توقيع زعيمين متنافسين هامين من زعماء الشحوح ، ولقد كان هناك تعارض واضح من الناحيتين العنصرية واللغوية بينها ، كما كانت دوافع الثأر هى التى تقيم حاجزاً بينهما ، كما أنه مما يثير السخرية إلى حد كبير أن يكون سبب وجود والى السلطنة فى خصب هو الحفاظ على السلم بين القبيلتين المتخاصمتين ، والمناسبة الوحيدة التى كان فيها هاتان القبيلتان تتحدان أو تتعاونان هى عندما تضطران إلى الوقوف معاضد عدوهم المشترك «القواسم» الذين كثيراً ما عانى منهم رجال السفن البريطانية نتيجة لأعمال القرصنة ، التى كانوا يرتكبونها ، والتى لم تكن تشكل خطرا على الشحوح وسلطنة عمان فحسب ، وإنما على السفن البريطانية التى كانت ترتاد مياه المنطقة لممارسة الملاحة المشروعة .

ومن هذا المنطلق فقط يعود التعاون بين حكومة مسقط وبين زعماء الشحوح ، وهكذا فقد كانت تلك الروابط روابط مصلحة ذاتية مشتركة ، أما بعد أن زال خطر القواسم فقد ضعفت قوة الشحوح ، وهكذا فإن رابطة الصلة العاطفية بين الطرفين مهما كانت شرعية المواقف قد لاتحتمل إذا كان فى ذلك مساس لمصلحة الشحوح ومشاعرهم ، ومن

هذه الزاوية وحدها ينظر الشحوح إلى دور حكومة مسقط فى السماح للأجانب بوضع خرائط للمنطقة ، وليس من أية زاوية أخرى ، ومن هنا كانت نقطة التحول ، فقد عقدت معاهدة قبلية سرية تنص بعدم السماح لأى جهة بالنزول إلى منطقتهم ، كما أن والى السلطنة كان عليه أن يغادر المنطقة .

القسم الثالث

المغامرة الثانية

صفحات من يومياتى فى جنوب الجزيرة العربية

الجانب المضىء لرحلة الجمال

التى بلغت ستمائة ألف ميل عام ١٩٢٧

الفصل الأول

استطاعت صحراء الربع الخالى . . تلك الصحراء العذراء الكبيرة فى جنوب شبه جزيرة العرب أن تستحوذ على انتباه « ويستلد » و« ريتشارد بيرتون » ، كما استحوذت على انتباه كل رجل أبيض أقام فى شبه جزيرة العرب ، وذلك كما أغرتنى أنا الآن .

ومنطقة الربع الخالى يمكن تشبيهها بسيدة وقــور ، تومئ للإنسان أن يمتنع عنها ، كان هذا هو انطباعى الأول بالنسبة لها ، ولكنى لم أتعلق بهذا الوهم الذى سببه الغزو المباشر والنهائى . . وكان قلب الرمال يحتاج منى إلى خبرة وتجربة ، وكان طموحي وقتها محدداً بنطاق الحدود الجنوبية للأراضى ، وكان هذا كافيــاً ، لأنها تمثل مساحة كبيرة . . ولكن يا للأسف ففى مقالى الأول ، كان على أن أجــد نفسى متجهاً إلى البــداية .

ومن دراسة لخريطة خور جراما اتضح أنها هى المكان المناسب للبدء ، فقد كانت هذه البحيرة الضحلة والقريبة من نهاية الجزة العربية ، التى تقف تجاه الهند ، كانت هى مكان لقائى ، وقد كان القدماء يطلقون عليها اسم « فورددام » وذلك عند رسو أسطول الإسكندرية الأكبر هنا ، عند قدومه من رحلة تاريخية من الهند .

ورسوت هنا يحدونى الأمل . . ولكن أين أصدقائى ؟؟

لقد كانت شواطئ البحيرة بريئة كإنسان عطوف ، وبعد الانتظار لمدة

يومين بلا جدوى عدت ثانية ، واعتقدت أنه ربما كانت صور الميناء الصغير ، الواقع على بعد أميال قليلة أعلى الساحل ، محاولة أكثر نجاحاً .

ووصل قارب صور الكبير من مصب النهر الخاص بخور جراما ، والتى وصلها رغم أنها صحراوية ، فهى معروفة بمركبها الشعبى ، وربما علم القارب «آل سعيد» بوصول الجمال إلى هنا فجاء إلى صور ، ربما لحراستى ، ومن قارب صور قفز بعض الرجال للاستحمام . ولكن أحدهم خرج فجأة صائحاً « الجن . . الجن » وسألته : ألا تخاف كلاب البحر ؟ فأجاب بأن الأعمار بيد الله ، وأن كل شيء مقدر .

وبعد أن ساعده رفاقه فى الصعود جلس على القارب ، ولكنه نزف من أنفه وأذنيه .

وكلمة صور العربية مثل الكلمة اليونانية تاير ، وإذا كان هيرودت قد كتب الحقيقة عندما قال : إن الفينيقيين أخبروه أن الخليج الفارسى كان مصدراً للفينيقيين ، فإن صور هى أصل أجداد هؤلاء التجار فى تاير ، وفى سيدون ولم تكن هناك أية قوافل ، ومن الصعب أن تجد أحداً يتعاون معك ، وكانت هناك دائماً معارضة من ساكنها .

ويقع حصن المملكة الذى كنت سأتحرى عنه على البعد ، مختبئاً فى حدائق النخيل ، على بعد ثلاثة أميال من البحر ، وقد كان من قام ببنائه ماكراً ، حيث أقامه على البئر الذى تحصل منه القرية على حاجتها من الماء .

والسلطة هنا ضعيفة وتقليدية ، وعلى يمين الطريق الواقع بين التلال المنخفضة رأيت كهفاً وأستدرت لاستكشافه ، ثم دخل : قبلى ، اثنان من عساكرى الاثنى عشر ، وخاف الباقى من الجن والثعابين ، وقدكان المدخل مظلماً ، وكان على أن أنحنى للدخول من المدخل المظلم الصغير ، ووصلنا إلى حجرة مظلمة غير منظمة ، ثم هبطنا اثنى عشر قدماً فى الرائحة المتربة ، والهواء الذى يكفى بالكاد للتنفس ، وقدكان الطريق موحشاً كما شكلته الطبيعة ، وكانت هناك حجرة صغيرة جداً لا تتسع لدخول الفرد إلا زاحفاً ورفض البدو القيام بالعملية ، وقمت أنا بالعملية وحدى .

وتعتبر الكهوف الطبيعية ملامح فى تلال وجبال عمان ، وقد سمعت الكثير من القصص عن أحد هذه الكهوف ، ولكنهم نصحونى بعدم الذهاب إليه ، حيث المخاطر الضخمة هناك ، وفى تلك الليلة كنت أريد أن أرى كيف يعمل الجن ، وتعمل الأرواح الشريرة هنا ؟

وقد رأيت « الزار » وكيف يقولون إنه يطرد العفاريت رغم انتشار الإسلام ، والوالى التقى يحرم ذلك ، وفى تلك الليلة ، ليلة رمسا ، يأتى الكثير من النساء يحملن بخوراً يشعلنه فى كل مكان ، وتتجمع النساء حول الزار ، ويبدأن فى تحريك أياديهن فى صفوف ، ثم يجلسن على الأرض ماعدا « أم الزار » وتكون هناك ذات ثلاث دقات ، يكون إيقاعها بطيئا فى البداية ، ثم يرتفع الإيقاع إلى أقصى سرعة ، وفى العادة تذبح الضحية ؛ وتلطخ أم الزار يدها بها ، ثم تسيل الدموع من عيون النساء بكثرة ، وتترنح الأجساد ، وتميل ، ويصيبها الإعياء أو الإغماء ، ويصيح المريض ، وتكون « أم الزار » فى حالة يرثى لها .

وتدور القهوة فى الزار « إن كان زاراً للرجال » ويحرق البخور كذلك وبعد ذلك تأتى الذبيحة ، والزار يتطلب إما غنماً أو بقراً ، ويتم ذبح واحدة ، ثم يوضع دمها فى القهوة ، وتقدم لأم الزار أو المريض ليشربه ، وكل ذلك لطرد الأرواح والشفاء ، وبعد ذلك تشوى الضحية وتؤكل .

وقررت أن أعود لمسقط فى الصباح ، وفى تلك الليلة رأيت رجال قبيلة هناوى ، يقتلون خفاشاً فى احتفال يقيمونه ، وهناك الأبراج الحربية فى فى صور ، والممتلئة بالنشاط .

وبالطبع فإن حكومة مسقط تريد المجرمين الذين يكثرون هنا ، وقد أبحرنا أنا والكابتن رشيد فى سرعة كبيرة ، حيث إن الرجال فى صور بدأوا يطلقون النار علينا ، ويعملون على الإيقاع بنا . وبدأ رمى السهام الحديدية تلقى علينا من كل مكان ، ولكنهم لم ينجحوا .

وخرجنا إلى عرض البحر ووراءنا قاربهم يريد اللحاق بنا ، وكان لدى على الطراد « آل سعيد » بعض المدافع ، وبالفعل وجهتها إليهم ، ولكن لم أرض أن أضربهم ، وأصبحنا الآن فى أمان خارج المدى ، وعدنا إلى مسقط ، ولكن خططى فى الصحراء الجنوبية الكبيرة ، والتى بدأت على الأقل بصور كنقطة للبداية لم تكتمل ، فقد وقفت بعض الأحداث عقبة أمام أن أتقدم فى تحقيق خططى هناك .

الفصل الثانى

المغامرة الثانية

مع بنى على

ثلاثة أشهر مرت فى البحر الهادئ الذى يشف شعاعا أملس فى السماء الزرقاء البهجة، التى تتراكم فيها أكوام السحاب الأبيض المتكوم عبر الأفق الجنوبى ، ورسا الطراد آل سعيد بسلام على مرساة شاطئ الجزيرة العربية .

وهنا تقع سويح بداية آمالى المرتقبة المتجددة وهناك حصن طينى على الشاطئ الأصفر ، وحوله حوالى أربعين كوخا ، ومجموعة من أشجار النخيل، وإلى الخلف على مسافة تقع جبال الجالان، وهى الإقليم الشرقى فى شبه الجزيرة العربية ، وتقع سويح خلف صور ، وخلف خور جرامة قليلا ، خلف تلك المنطقة التى تنعطف منها شبه الجزيرة العظيمة إلى الركن ، وحيث لم تعد شواطئها تستخدم مياه خليج عمان ، ولكن تعتمد على المحيط الهندى .

ومن الشاطئ يخرج أحد الأودية وهناك إبعض السكان فيه يهرعون إلينا ، وتبعهم آخرون ، ثم وصل ثلاثون من القرويين بسيوفهم إلينا ، وقد كانوا يرغبون فى معرفة مانقوم به ، وكانوا يصممون كذلك على أن يستفيدوا «من سمك للبيع » نشتريه منهم حيث إن الصيد هو المهنة الأساسية لهم ، وأرسلت خطابا إلى الأمير محمد فى قبيلة بنى بو على ، والذى يعيش فى الداخل ، على بعد ثلاثين ميلا ، والذى أرسل لى عشرين بدويا وستة جمال ، وكذلك الشيخ حمدان شقيقه ليصحبنى للقرية ، وهنا تحققت

بعض أحلامى ، فبينما كانت أحلامى تتجه لرحلة إلى الحدود الجنوبية الشرقية . . رحلة بالجمال ، تمتد عدة أسابيع ملأت أفكارى — رحلة صحراوية تنتهى إلى محافظة ظفار ، وهى الأرض الشهيرة بالذهب واللبان الذكر .

وكانت حقائبى ثقيلة ومليئة بحاجياتى ، حتى إننى أشفقت على جملى من ثقلها ، وفى الطريق لم نكن نرى إلا أرضا منعزلة وسحبا ، وحشرات حمراء ، ومع الغروب وصلنا غينا حيث أحراش أشجار السنط فى الرمال المتحركة . وحيث كان على المسلم إذا أراد الصلاة أن يتيمم ، وهنا جاء على سكرتيرى وقال . ماذا أفعل ياسيدى ؟ أنا شيعى ، وهؤلاء وهابيون ، فإذا صليت معهم فيسعاملونى معاملة سيئة ، حيث إنى أختلف معهم فى بعض حركات الصلاة ، فأجبته ، إن المكان الوحيد الذى يمكن للإنسان أن يفعل فيه مالايحب أن يراه الناس هو الصحراء ،وعند وصولنا خرج إلينا الأمير محمد ونزلنا لتبادل التحية ، وفى الطريق خرج آلاف القرويين لتحيتنا .

ودقت الطبول ، وعم الزحام يمنة ويسرة ،مع رقصات السيوف اللامعة فى الشمس ،وارتفعت الزغاريد ، وسمعنا الغناء ، وطلقات بنادق رجال القبيلة ، لتحيتنا ، وذهبت إلى حيث كان الأمير يقف لاستقبالى أمام الحصن ، حيث كان الرقص بالخيل ، والجمال ، وغناء الغجر على عادة البدو القدامى ، وفى النهاية صاحوا « الله أكبر » ثم انطلقت طاقات مدفعين برتغاليين من القرن الثامن عشر للتحية ، وكان الحصن الذى يعيش فيه الأمير كبيرا وجميلا ، وفريدا من نوعه ، وكان عليه مدفع وجسر حربى

فوقه برجان ، وإلى أسفل وادى بطحة يوجد الجبل الأخضر الذى يرتفع إلى عشرة آلاف قدم : وحيث يجرى الوادى تقع محافظة الشرقية ، وتمثل نهاية مزارع النخيل الغنية فى بنى بوعلى ، وتمر على الطريق المقفر إلى الساحل خلال سويح .

وكان تأثير مضيفى على البدو هنا قد ساعدنى على التحرك ، وكان الأمير يتسم بروح التواضع والخبرة والدعابة ، وقد سافر إلى الهند منذ فترة ، وهو فخور ببعض الكلمات الإنجليزية التى يعرفها ، ولكن قبوله لمشروعى كان على غير المتوقع ، وقد ذكر أن الرحلات الداخلية بين البدو ممنوعة ،حيث إن طريق البحر هو الأكثر أمانا ، حيث سهولة الاتصال ، لأن السير داخل الصحراء خطر ، وقد مات عجوزان منذ فترة كانا يحملان رسائل من السلطان ، مات أحدهم بالحمى ، أما الآخر فلم يعرف عنه شئ ، وعلمت أن الوهابيين لم يسمحوا لأى غريب بدخول أراضهم من قبل . فقلت له « أنا على استعداد للمصاعب » فكانت إجابته ، سيادتك لم تفهم .

وفى اليوم الثالث ظهرت عقبة أخرى ، وهى أن السفر بدون رفيق هناوى يعتبر انتحارا ، ولكنه لا يوجد ، وكان الأمير رجلا يصعب إقناعه ، وإن كان قد اضطر أخيرا لموافقتى ؛ وتفضل بتزويدى باثنى عشر بدويا لمسافة الثلث الأول من الرحلة ، وحتى معسكر حايفه الحميم ، شيخ جزيرة المصيرة ، وهى المعسكر الذى يقع باتجاه الغرب ، ومن هذه النقطة يجب أن أعيد الجمال ، وأن أرسل رساله أتحمل فيها مسئولية سلامتى عما قد يحدث لى .

وبينما كنا ننتظر الرفيق الهناوى كان من حسن الحظ أن صحبنى الشيخ فى رحلة إلى قريته حيث الحدائق الجميلة وخرج القريون ، وأمسكوا

بجيادنا يسيرون بها ، بعد أن قدموا لنا أكواب القهوة . والوهابيون يرفضون التدخين ، وقد لاحظت ذلك ، وسألت الشيخ « ماهى عقوبة المدخن » قال : أسبوعان فى السجن ، وهناك عادات أخرى ، مثل ، تحريم الصراخ والحزن عند الوفاة ، حيث إن ذلك هو « قدر الله » .

وبعد أن أمدنى الأمير بكل ما قد أحتاج إليه تركت الواحات المتحضرة نسبياً ، وسررت كثيراً لأن أجد نفسى أسير فى قافلة الجمال خارجا فى النهاية إلى صحراء الجزيرة العربية الجنوبية التى لم يخترقها إنسان أبيض من قبل .

الفصل الثالث

أراضى الحدود الجنوبية

هى بلاد الجمال . : وفيها استراحة بها ماء ، يمتد بعدها الطريق الرملى . حيث الكثبان الرملية الكبيرة ، وتمتد هذه الرمال حتى شواطىء المحيط الهندى ذاته . شمالا وغرباً حتى أنظمة الوادى فى حلفين وبطحة مكونة جزيرة من الرمال باتجاه الغرب .

وهنا يسكن ، يال وهيبة . . وهم قبيلة الرحالة فى عُمان ، يعتنقون المذهب الإباضى بطريقتهم ، ويعتبر المذهب الهناوى كما تشكل وتدا بين قبيلة الوهابيين فى هذا البناء وبين كتلة صلبة من قبائل شافى ، وفى أراضى الحدود الجنوبية تعتمد الحياة على تربية الجمال والأغنام ، وقد تسببت الحروب فى أن أصبح أهلها رحالة ،وأما رابطة الدم فهى ضرورية هنا ، وقاسية وعملية فى نفس الوقت ، وهناك قانون غير مكتوب ، يحكم العلاقات البدوية ، وهناك صراع بين الشريعة « القانون الإلهى » السائد فى بقيـــة الجزيرة العربية بصفة رئيسية وبين حكم الحوز ،ويعيش الزعماء الدينيون فى أماكن مستقرة ، وعلى أى فرد أن يذهب إلى القاضى ، ويقطع المسافة التى يبعد بها القاضى عنه كى يحكم تبعاً للشريعة ، ولكن حياة البدو كالزواج والشراء والبيع والغش والسرقة وقتل الجمال ،والقتل . . كل هـــذا لا يقبل إلا حكم الحوز ، وهو المعمول به فى كل القبيلة ، وهناك الشيخ . . وعندما لا يصل الطرفان لاتفاق يحكم الشيخ الذى يتسم بالمعرفة والخبرة ، وهما يمثلان الحق التقليدى فى سيادة حكمه .

وهناك قصة حقيقية حول رجل قتل عمه ، ثم شعر بتأنيب الضمير ، ورغم أن الأسرة قد صفحت عنه ، إلا أنه ذهب إلى الحوز ، قائلا : إن الحزن يعتريه من فعلته ، وأنه يشعر بتأنيب الضمير ، ويطلب حكم الحوز ، وبعد سماع الشاب القاتل أمر الحوز بأن يلقى الشاب بنفسه فى بئر سيتم حفره فى الحال ، ولكن رجال القبائل أمسكوه فى اللحظة الأخيرة ، قبل أن يلقى بنفسه ، تنفيذا لحكم الحوز ، وكان ذلك قد تم تجهيزه وترتيبه من قبل الحوز الذى قال له ، اذهب إلى قبيلتك ، ولن تشعر بالذنب بعد ذلك .

وقد حكى لى هذه القصة والد السلطان الحالى وحاكم مسقط وعُمان ، وقال إن هذا الشاب الذى واجه الموت هو الشيخ المشهور حميد بن خلفان ، الذى أصبح شيخ هذه لقبيلة ، وأصبح رجلا عظيما ، وأخيراً وصلنا إلى رأس خالف ، حيث توجد قرية خالف ، ولنصف عام مضى عاش شيخ قبيلة جنبة ، وهو شخصية ذات وجه أرستقراطى ، وهو مرموق هنا ، ومن حسن الحظ أنى وجدته هنا لمناقشته فى الذهاب إلى أراضيه ، ومن حسن الحظ كذلك أنى كنت فى ضيافة حلفائه العظام ، بنى بوعلى ، وفى البداية توقعت رفضه لخططى ، وأنى سأحتاج لحديث طويل لإقناعه ، وسألت عن إمكانية إجارى والهبوط على جزيرة أهوت ، وكان الشيخ يعلم أننى سأحتاج لعدد من الجمال ، ولكن بعد أسبوع وجدت نفسى على رأس قافلة تندفع خلال أراضى الحدود الجنوبية .

وبينما كنا فى رحلتنا قمت بدراسة عن رفاقى ، وقد كانت تحدث يومياً خلافات بينهم حول غذاء الجمل ، فقد كان كل منهم يريد أن يستأثر بنصيب الأسد من أجل جمله ، وكانوا يتبارزون من فوق ظهور الجمال من وقت لآخر ، وقد علمنى هذا ، أن البدوى شخص عصبى المزاج ، يحتاج إلى ثبات

وتفاهم لعلاج الأسور ، وفى بعض الأوقات عندما يكون فى حالته الهادئة مع بعض التعب يكون صوته مليئاً بالأحاسيس ، وعواطفه واضحة على سمات وجهه .

ومن حسن الحظ أن الرحالة قد أطلعتنى على الكثير مما لديهم ، وعلى بعض مايساعد المسافر ويمكنه من التعامل معهم ، حيث إن كلمات التشجيع ضرورية لهم ، وإحساس البدوى بالوقت يكاد يكون معدوماً ، وهولايعلم الوقت بالضبط ، ومحادثات البدو لاتخرج عن نطاق الحديث عن الجمال والدين والنساء ، وهذه الأحاديث مثيرة للغاية بالنسبة لبدو شبه الجزيرة العربية ، وخاصة غير المتزوجين « ١٨ عاماً » والفتيات تتزوجن هنا فى سن مبكرة ،ولا يسمح للفتاة هنا بتعدى سن الخامسة عشرة بلا زواج ، والرهبنة هنا ممنوعة ، والعادة هنا ، أن ابن العم هو صاحب الحق الأول فى طلب يد الفتاة ، وإذا لم يتقدم ابن العم فإن والد الفتاة يزوجها بلا استشارتها لأى شخص كريم ، حتى ولو كان رجلا عجوزاً .

وفى الطريق توقفنا عند بئر ماء وسألنى أحدهم ، وهو يشير إلى فتاة بجانب البئر ، لماذا لا تتزوج هذه ؟؟

وسألتها : « هل تتزوجيننى ؟ »

فأخذت تضحك ، وقد كانت فى العشرين من عمرها تقريباً .

ثم سألتها لم تتزوجى ؟ فقالت ليس لى ابن عم والزواج تكاليفه كثيرة .. وأنا فقيرة ..

وفى حالات كثيرة يكون لدى البدوى زوجتان فى وقت واحد ، وإن كانت الأغلبية بوجه عام لها زوجة واحدة ، والطلاق سهل هنا . فعلى

الإنسان أن يقول لأمرأته ، « أنت طالق » لثلاث مرات ، والمرأة المطلقة تؤدى لها حقوقها كاملة ، وحقوق ما لديها أطفال ، وقد سألت راشداً ، وهو بدوى شاب من مرافقى :

— هل أنت متزوج ؟؟

— لا. ولكنى سأتزوج هذا العام إن شاء الله .

— لماذا لم تتزوج قبل ذلك ، لقد قلت لى إن عمرك عشرون عاماً.

— الزواج مكلف :

— كم ؟

— ستون دولاراً .

— فى بلادنا لاندفع نقوداً لوالد العروس . .

— الله أكبر . . : تلك بلاد النعمة .

— ولكنا ياراشد لانستطيع أن نطلقها مهما كانت الأسباب ، للأسف.

وفى الليل سألت أحد البدو ، لمن الأثرة والتفضيل عندك ، للجمل أم لزوجتك ؟

فأجاب للجمل بالطبع .

وهنا قاطعه آخر : قائلا : لاتصدقه ، فالبدوى يفضل زوجته :

فسألته : لماذا ؟؟

فقال : المرأة تنجب بنين وبنات ، وهى دعامة البناء ، وقال آخر . صدق :

والجمل لدى البدوى أكبر من مجرد سفينة الصحراء ، فهو نعمة الله « وعطاء الله » وهو روح الروح ، فهو يمده بالطعام ، وهو وسيلة المواصلات ، وأحياناً يكون المأوى والملبس . وفى الغارات يكون الجمل هو سيارته ، وفى تلك المنطقة « الحدود الجنوبية » قد يعرف البدوى عمر جمله ولايعرف عمر نفسه ، وتلقح الجمال كل سنتين لتجديد اللبن ، ويعلن

أنها حامل عن طريق راية تعلق فى ذيلها ، وتختلف طريقة سقى الجمل حسب الحمولة المشحونة وحسب الفصل .

وفى النهاية سرنا حيث الرمال ، وتلك البقعة عديمة الماء ، ويحتفظ الجمل بالماء فى جوفه ، وعندما يتعرض البدوى للموت عطشاً فهو يقوم بذبح الجمل ويشرب ما فى بطنه .

وكنت قد أخذت معى كمية كبيرة من دواء الكينين وعددا من الأدوية والعقاقير الطبية ، ورغم أنى كنت مريضاً فكان على أن أشرح لهم أننى لست طبيبا ، ولكن المرضى كانوا يرون عندى الأمل ، وحينما ذهبنا لمنطقة بها السكان كان يأتى إلى الكثيرون من المرضى .

وذات يوم فى بلاد يال وهيبة جاءتنى إحدى الأمهات ، وكانت تريد أن تعرف ، هل أنا عالم فى علم النجوم ، فنظرت إلى الشيخ الذى كان يصاحبها ، وكان ما شرحه لى من كلامها جعلنى أتعجب ، وسألته عما إذا كان يعيش هنا بعض من يعبدون النجوم من جنوب الجزيرة العربية القديمة؟ فقال : لا ، ولكن الأم كانت تعتقد أن النجم الذى يتبعه طفلها هو الذى يؤثر عليه تبعاً للاسم الذى أعطى للطفل ، وكانت قلقة للغاية لاكتشاف ما إذا كان تغيير اسم الطفل يمكن أن يعمل على شفائه .

والمرأة البدوية كذلك تعتقد فى الخرافات والأهام ، وتفسير الأحلام معرووف بينهن وقراءة الرمل هنالك منشرة ، وذات يوم أخذ حمودة رفيقى ينظر ، ويرسم بعض الخطوط المستقيمة ، ويقيسها بالشبر ، ثم أردف قائلا : ألم تسمع شيئاً عن سالم بن فلان ؟ فأجبته بالنفى ، فقال « إنه

حارصوصى اشتهر برسم هذه الخطوط المستقيمة ، وقد كانت خطوطه تلك أكثر حقاً من لسانه .

ثم قص لى رواية رآها كشاهد عيان عليها « قال : كنا فى إحدى الغارات ضد الفرس ، وقبل أن نصل للبئر . الذى قال لنا أحد مستكشفينا إنه يمكن أن نرتوى منه ليلا بدأ سالم بخط خطوطه ، ثم قال إنه يخشى مصيبة ، وقال إننا سوف نقابل الهناوين ، وأن غنيمتنا ستكون كبيرة ، ولكنى أرى دما ، إنه دمى .

وفى اليوم التالى دعوت الله أن يكون شاهداً ، وبالفعل قابلنا الهناوين ، وأخذنا سبعة عشر جملا وقتل سالم . . ثم أقسم بالله على صدق هذه الرواية.

الفصل الرابع

الجراد وكلاب البحر

وبينما كنا فى طريقنا سمعت طلقات البنادق فجأة على بعد مائتى ياردة، ثم تبعتها طلقات وصيحات، تنطلق هنا وهناك، ومرت الطلقات فوق رؤوسنا حتى لقد تجمدت فوق السرج خوفاً، وحينئذ أشار على تابعى «ربيع اللواطى» بالتوقف والترجل، خوفاً من أن نقتل، فقد كان البدو يظنون أننا مغيرون. وأحسست أنا وربيع بالعطش بعد ساعات طويلة، قضيناها فوق ظهور الجمال، ولم يكن معنا لبن، ولذلك سرنا ميلا على أن نجد أحد الرعاة بقطيعه، نلتمس لديه حاجتنا.

ووصلنا إلى أحد الأودية، وبينما كنت أتبادل التحية كقادم جديد لم أجد الاستقبال اللائق، وقد كانت هناك قافلة لبدو هذه المنطقة فى نفس الطريق، فسرنا خلفها لمزيد من الأمان، حتى وصلنا إلى أرض الظاهرة، التى تقع أسفل جـدات حراسيس، حيث المساحات الواسعة الخالية، والشمس والهواء المنعش، ولم تكن هناك أية ألوان للخداع مختبئة، حيث الفضاء الواسع والأرض الممتدة التى لا تحتوى على أية أماكن للاختباء، وكذلك السكك الحديدية الممتدة إلى شاطئ المحيط الهندى تحت أشعة الشمس الاستوائية الشفافة، والتى يتلألأ من خلالها السمك بوضوح فى المياه، وكأنه فى أحواش للأسماك، وتكثر طيور الشاطئ من كل نوع على الشاطىء وهنا تسمع كلمة «كلاب البحر للعشاء» نداء جذاب، وكلاب البحر الآن أكثر جمالا ومذاقاً، مما هى عليه عندما تجفف ويصدر للخارج، وهناك

آلاف الأطنان منها فى جنوب شرق الجزيرة العربية ، وهى تمثل غذاء لذيذاً لدى الصينيين ، وسكان جزر الملايو .

وطريقة صيد كلاب البحر هنا مثيرة للغاية ، فأغلب الصيادين لايملكون قوارب صيد ، لذا فهم يلقون بالشباك ، ثم يأتون فى اليوم الثانى ويسحبونها ، لكى يعرفوا هل الشباك تطفو أم لا . وإذا كان هناك صيد ، فهو يحاول ، أى الصياد ، أن يعرف ، هو حى أم لا . . وإذا كان حياً فهو يأخذ زميلين له ويسبحان للإتيان به .

ورغم أن البحر مفعم بكلاب البحر فإن الصيادين هنا قد أخبرونى بأنهم لم يسمعوا فى حياتهم عن أى ضحايا لكلاب البحر . وسألتهم ، ألا تخافون الموت ؟ فأجابوا : لكل شىء قدر ، وإذا كان الله قد قدر لنا الموت فسنموت : فلماذا نخاف إذن .

والأسماك هنا متنوعة وكثيرة ، وأهم شىء بينها هو السردين الذى يتم صيده بكميات كبيرة ، لاستخدامه علفاً للجمال ، وهنا وهناك تراهم ينشرونه فى الشمس فى مربعات كبيرة ليجفف فى الشمس ، وتقوم الفتيات الصغيرات بمراقبته خوفاً من طيور السماء ، التى ربما تأتى ، وتخطفه ، وكانت طيور النورس تقوم بخطف الأسماك .

وبعد فترة خرجت إلى بعض التلال للصيد ، ووجدت بعض الرعاة هناك ، وذهبت إليهم وشربت لبناً ، ورفضوا أن يأخذوا ثمنه ، ثم جاء قطيع آخر من ذويهم ؛ واستطعت بمساعدتهم أن أسجل أحدى أربع اللهجات التى وجدتها دارجة فى جنوب الجزيرة العربية .

وفى اليوم التالى جاءنى أحدهم ، واسمه حمودة ، فى حالة نفسية سيئة وسألنى :

— ما رأيك فى مريم ؟

— قلت : صبية . وما رأيك أنت ؟؟

— قال : لا توجد امرأة أجمل منها فى كل البلاد .

— قلت : كيف تعرف ؟؟

— قال ، أوشكت على الزواج بها . . وقد أخذت مائتى دولار لأولاد عمها . ولكنهم رفضونى ، فقد سمم أحد أعدائى أفكارهم ، وزوجوها من تاجر جواهر ، اسمه ماهرى .

وأمس بعد أن شربت اللبن من يد زوج مريم – المقصود المؤلف – جلست أنا وهو فى ظل شجرة سنط .

— قلت : ألست راضياً بزوجتك الحالية ؟؟

— قال : قسمة . .

— قلت : هل تزوجت من قبل ابنة عم ؟

— قال . . لا . . ليس لى عم . . وقد طلقت زوجتى الأولى ليس لأنى لا أحبها ، ولكن لأنها كانت عاقراً ، ورأيتها أمس فى ليكبى ، وحاولت هى إرسال أحد الأشياء لك كهدية ، ولكنى أخبرتها أن هذا ضد التقاليد ، أن تأخذ شيئاً دون أن تدفع ثمنه ، وأعطيتها أربعة دولارات مقابلها ، ثم أخذتهم من خادمك .

— حسن جداً . . ولكن ماذا عن زوجتك الثانية ؟

— قال : لم تكن حسنة السلوك . . وكنت أشك أنها على علاقة بالجيران ، واحد منهم أعرفه بالذات ، وقد ضربته بالعصا ، وانتقم بقتل أحد جمالى ، وحدث نزاع ، ثم سلام ، و قدم لى جملين ومائتى دولار . . ثم طلقتها . .

وفى مدخل وادى عينان كنت مضطراً لتغيير جمالى وشخصيتى ، وأرسلت حموده للشاطئ لشراء بعض الحاجيات والطعام ، وسرنا عدة أميال حتى وصلنا إلى المسار ، وقد أكد المرشد الذى كنت أعتمد عليه أن السكان هنا مسالمون ، ولذلك أخذت بندقيتى ورفيقاً لى ، ثم صعدنا التلال للتجول ، وأثناء الأسبوع الأخير كان خط السير فوق السهل الناعم يمر بأجزاء أشبه بالحقول ، ووجدت آثاراً على الأرض وقد أخبرنى رجالى أنها آثار غزلان ، وأننا إذا تتبعناها فسوف نصل إلى الماء ، وفجأة لمحنا الغزلان المختبئة بين الأشجار تجرى بسرعة كبيرة ، ولم يكن معنا كلاب لاقتفاء الأثر ، ولو كانت معنا لساعدتنا كثيراً ، ولكن البدو لم يسمعوا أبداً عن كلب يصطاد غزالا ، كما عرفت أنا من خلال تجاربى ،وعندما أخبرتهم ذكروا ، أن ذلك الغزال لابد أن يكون ضعيفاً وصغيراً حتى يجره كلب كما أقول .

وبينما كنا نمر من وادى عينان كان لدينا الكثير من الطعام من الجراد وأقمنا معسكراً بجوار أحراش السنط . وأشعلت النار لكى ينضج الجراد ثم أكلنا ، بعد التخلص من الأجنحة والذيل .

والعرب يعتبرون الجراد طعاماً لذيذاً وهو لديهم أغلى كثيراً من الدواجن.

الفصل الخامس

الداخل المجهول

كنت سعيداً أيما سعادة حين وجدت نفسى بعد أيام قليلة فى طريقى للرحيل من الساحل ، ومتجها نحو الداخل المجهول ، الذى يسكنه البدو ، وفى المراحل الأولى كنت مستمتعاً بحماية الشيوخ الأقوياء ، وحتى ذلك الوقت كان فريق البحث قد مر بثلاثة مراحل ، إحداهما كانت فى وادى سراب ، والرحلة الأخيرة من تلك المرحلة امتدت خلال أكثر من مائة ميل عبر الجبال ، حيث الأرض العارية بلا ماء وحزام من الجبال حول السكان ومكان تملؤه الغارات والجرائم .

والآن ، ما هو الطريق الذى يجب أن نسلكه الآن ؟ وسألت صديقى عبد الله ؟

فقال : لايوجد أى عمار ، أو سكان بين هذه الأماكن وجبال قارا ، والإنسان قد يتعرض للخطر إذا سار فى هذا الطريق ، وأثناء النهار تحركنا بحرص ، وفى الليل لم نشعل ناراً ، ويعتبر الماء شيئاً نفيسا هنا . فدرجة الحرارة تصل إلى أربع وأربعين درجة فى الليل ، وعلى ذلك لم يكن النوم مريحا ، وخلال ستة أسابيع لم نأكل أى شىء أخضر ، اللهم إلا اللبن والتمر ، وبينما كنا نسير كنت أسجل تجاربى مع رفاقى البدو ، وقد أدهشتنى الزغاريد والأغانى التى كانوا يتغنون بها ، وعندما طلبوا منى الغناء أنشدتهم أغنية قديمة .

وللزغاريد هنا حكاية طويلة ، فهي عادة عربية يقوم بها النساء عند الحروب ، أوعند الأحداث السارة ، أو عند أمور يحبون وقوعها ، وعند الدخلة فى الزواج .

والبدوى لايعشق شيئا قدر عشقه للحرية ، وعلى الرغم مما قد يتحمله البدوى فى سبيلها من جوع وعطش فهو يفضلها على الراحة والدعة فى قيود ، وفى بعض الأحيان تحدث بعض النزاعات بين القبائل ، ويضحى كل فرد بحياته فى سبيل انتصار قبيلته ، والتأرجح بين السلم والحرب ، وهو حالة معتادة هنا ، وربما تمتد الحروب لآلاف السنوات ، وكثيرا ما يحدث نزاع حول عيون الماء النادرة فى الجزيرة العربية .

وفى الطريق سألنى صديقى ربيع ، عما إذا كنت أعرف السبب فى المنزلة العظيمة للدابة عند البدو ولكنى أجبته بالسلب . . فقال :

ذات يوم كان الرسول محمدا عليه السلام مسافرا مع رفاقه وعند المساء أوقفوا ركبهم عند بعض الخيام ، والتى كانت ملكا لأحد الأغنياء ، وكان تاجراً كبيراً ، وعلم الرجل بوصول الغرباء ، ولم يكن يعرف من هم ، فدعاهم للعشاء ، ولكنه كان رجلا وضيعاً بخيلا ، فبدلا من وضع عجل سمين وضع قطة بدلاً منه ، ولم يخف ذلك عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

فنصح الرسول رفاقه بعدم الأكل ، ونادى على القطة فخرجت حية ، وهربت ، ونادى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ربه ، أن يحاسب هذا الرجل على فعلته ، وبالفعل حول الله تعالى الرجل إلى دابة لتكون حلالا ، ويأكلها كل الرجال .

وفى اليوم الثانى توقف الرسول عليه السلام بجوار رجل فقير لم يكن يعرف من هم كذلك ، ولكن الطيبة والحب كانا يسكنان قلبه فأخذ سكيناً وذبح أسمن شاة مما لديه ، وجلست زوجته تطهو الطعام للضيوف الغرباء ، وجبة العشاء ، وكان للرجل ولدان ، قال أحدهما للآخر : تعال نحاول أن نذبح أحدنا كما فعل أبانا بالغنم ، فسقط أحدهما فى بركة من الدم .

وطلبت الزوجة من زوجها ألايذكر شيئاً عن مصرع ابنه إلا بعد أن يتناول الضيوف طعامهم ، ودخل الرجل على القوم يدعوهم للطعام ، ولكن الله قد أوحى للرسول عليه السلام بما حدث ، فطلب من الرجل أن يأتى بولديه معه للطعام ، فقال الرجل : سنأكل بعدكم .

فخرج الرسول عليه السلام وصلى ، وسأل الله سبحانه وتعالى ، فحدثت المعجزة وأحيا الله الولد مرة ثانية ، وابتهج الجميع ، وتناولوا وجبة رائعة ، وصلى الرسول صلى الله عليه وسلم لله ، ودعاه أن يكرم ويكافئ الرجل الفقير . وقال عليه السلام للرجل : ستكون غنياً فى الصباح ، ويصيبك خير كثير . .

وفى الصباح وجد الرجل جمالا ، وجاموساً ، وأبقاراً ، وغنما لاحصر لها ، وكان كل هذا ملكا له .

وإن هذه القصة — دون مناقشة لها — لتدخل فى النفس شعوراً عميقا بقدرة الله وإرادته التى تجرى على يد رسله . من النبيين والرسل .

الفصل السادس

قائد الطراد آل سعيد

وفى منتصف ليل آخر إبريل كنت أشق عباب من الشاطئ فى مسقط ، وكانت التعليمات التى لدى تقضى بالتوجه إلى مكان الأحداث ، حيث القبائل ، والتعامل مع الموقف الذى وصل إلى درجة الخطر .

وكان الطراد آل سعيد من طراز صغير ، حمولة مائة وخمسين طنا ، وكان علم مسقط الأحمر يرفرف فوق ساريتيه ، وكان مسلحا بثلاثة مدافع بارود ، وبمدفعين آليين مع صنع فرنسى ، وقد كان هذا الطراد فى الواقع يمثل الأسطول العمانى ، وقد تم شراؤه من البحرية الملكية الهولندية ، منذ أربع سنوات مضت .

وقد سبق استخدامه فى عمليات استكشاف سواحل جنوب شرق شبه الجزيرة العربية لمسافة تصل إلى ألف ميل .

وقد ظهر القبطان راشد من مكتبه خلف الخريطة المضاءة وصاح فى رجل الدفة : « شمال ٢٥ غرب » ثم أطلق العنان لماكينة الطراد فيه حتى تعمل بأقصى طاقتها ، وكانت أضواء المنارة القابعة جناحى مدخل ميناء مسقط تسطع وكأنها تودعنا ، ونحن نبدأ تحركنا للخروج إلى عرض البحر .

وقد كان راشد واحدا من أبناء مسقط ، رجلا عملاقا ، ذا أخلاق

عالية ، وهكذا ، كلما تذكرت الطراد العمانى ، لابد وأن أتذكر معه قائده الفذ القبطان راشد ، وهو يرتدى بدلته البحرية ، المزركشة بأشرطته ، والسيف الذهبي يتدلى ببريقه الأخاذ من على كتفيه ، لقد كان مظهره يدل على القوة والألمعية ، التى لابد وأن تنال الجائزة ، فى أية مناسبة احتفالية .

وآل سعيد ليس هو أول طراد يتولى القبطان راشد قيادته ، فقد كان قبله الطراد « نور البحر » والذى أحيل إلى التقاعد ، وانتقل إلى النشاط التجارى مع سواحل الهند .

وكان راشـد ممتلئا بالحيوية والنشاط ، وكان بالنسبة لى يعتبر كشخصية من شخصيات ألف ليلة وليلة ، فقد كان يبحر مثل والده فى سفنه ، وهو يسير على عادة أبيه ، فقد كان أبوه بحارا مغامراً . . وقد كان القبطان راشد، الليلة، يعود بذاكرته إلىأيام صباه،حيث كان يعمل كمساعد ضابط عـلى السفن البحرية ، وقد كان معتزا بنفسه ، وفخوراً بأسياده الذين كان يعمل معهم ، وقد سافر إلى بلاد عديدة، وتزوج سبع مرات ، وقد حدثنى عن رغبة والده الراحل فى الحج ، وكيف قام هو بتلبية دعوته بعد وفاته .

وقد قص القبطان راشد على الكثير القصص المسلية عن مغامراته فى البحر ، وفى الحقيقة كان حديث راشد ممتعا جداً .

وعندما أصبحنا بمحاذاة ساحل الباطنة قمنا بعمل سبع عقدات بحرية ثم، تحولت إلى رفيقى المسلى كى أتمنى له مساء سعيداً قبل

الاتجاه لأسفل ، ولم يترك القبطان راشد منصة الربان طوال طريقنا في البحر ، وقد كان راشد سعيدا كعادته ، فقد كان يستطيع أن يحول كافة الظروف تبعا لأغراضه ، ولنفس الشيء كان ماضيه غير مخجل ومستقبله رائع .

لقد كان ذا روح شجاعة حقاً .

الفصل السابع

فى أرض الشحوح

ألقى القبطان راشد بالمرساة ، فقد وصلنا إلى البوابة الجنوبية لبلاد الشحوح ، والتى رأيناها أمس من الجانب الأيسر لسفينتنا كسلسلة زرقاء، تخرج من البحر . وكان الفجر قد بدأ ينشر ضياءه على الجبل ، ولكنها الآن تقترب من الساحل ، ثم تتجه شمالا مكونة جرفاً محيطياً ، وإلى أسفل الجبال كان الخليج الرائع ، وحدائق النخيل الممتدة بموازارته ، وقد ظهرت الأبراج الحربية ، حيث كانت حولها مستوطنتان صغيرتان .

وهذه كانت دبا وهى قرية صغيرة قديمة ، وقد جاء الفرس الغزاة هنا قبل وصول جيوش الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وهناك مدفع برتغالى ، وقد كان مقاماً فى منتصف الطريق ، بين رايتنا وبين راية مسقط الحمراء ، فوق الأبراج ، وبسرعة خرج إلى الشيخ القاسمى وهو صديق قديم .

كنت أريد سيد البرج الآخر جاره الشيحى Shihi الذى جئت من أجله ، وهو الشيخ صالح الذى يمكن أن يلعب دوراً هاماً بين الشحوح ، وحوادث خصب ليست فى نطاق أعماله ، وحتى الآن هى فى طبيعة علاقات الشحوح ، وسوف يكون التفاهم بسيفه إذا لم يجد التفاهم الودى، ولكنى لم أجئ من أجل العتاب أو اللوم ، ولكن كى أرتب إقامة سلمية إذا أرادوا ، ومعلوماتى الخاصة عن أن الشيخ حسن ترك لتوه خصب فى

زيارة لصالح ، وكانت هذه المعلومات هى سبب زيارتى ، ولم أكن مخطئا فقد كان فى طريقه إلى هناك الآن ، ولكن أين الشيخ حسن ؟ وهل هو على حق ؟

لم يكن اتجاه الشيخ صالح لا يتسم بالود ، ولكنه كان سلوكاً دفاعياً ، وهو لن يقف فى وجه الشيخ حسن أو يحاول تهدئة الجو ، ما لم يعلم أن مسقط لديها الوسيلة التى تلزمه لذلك ، وكان هذا دورى ثانية .. هل يمكن أن أتحادث وأتناقش فى الوسيلة التى يمكن بها أن أتصل بحسن ؟؟ هل يصحبنى الشيخ صالح إلى خصب لأرتب مقابلة هناك ؟ ولكنه عاد وقال لى : إن مجيئى غير مقنع ، وإن إجابته ستكون فى الصباح إن شاء الله .

وقد تبع الشيخ مائة من السكان إلى قاربه القابع على الشاطئ ، وهم يغنون بعض الأغانى البحرية القديمة ، وهؤلاء الرجال غير النظاميين من الشحوح ، رعاة ، وصيادون ، ، وعاملو بناء للسفن ، وجامعو تمر .. ولكنهم ليسوا محاربين ، ورغم ذلك فهم اليوم يحمل كل منهم سلاحاً وسيفاً ، ويبدو عليهم عدم الود والعصبية .

وفوقنا كانت ترنو الجبال العالية ، حيث مساكنهم ، التى تحكى الكثير عنهم ، وحيث توفر لهم الكهوف السكن الملائم لهم وعائلاتهم ، فيكون الصمت الذى يخيم على تلك الكهوف الطبيعية القابعة فى الجبال ، حيث لا تسمح الظروف الطبيعية ببناء منازل ، والبدوى يحيط هذه الكهوف بأخشاب السنط حتى يخفيها عن عيون المارة ، ولديه هناك خزانات لحفظ المياه تمكنه من البقاء هناك وعدم الخروج لفترات طويلة .

والحصان غير معروف فى تلك الجبال ، وكذلك الجمال موجودة ،

ولكن بأعداد صغيرة ، وهى تعيش على أحراش السنط ، حيث إن الأمطار لا تكفى لقيام الزراعة ،أو قيام قرية كبيرة لأنه لا توجد القطاعات الزراعية التى تنتج قمحاً أو ذرة تسد حاجة السكان .

وحتى الحمار فنادرا ما يستطيع تحمل هذه الظروف القاسية ، ويعيش الشحوحى فوق قمم تلك التلال الخطيرة بقطعان الماعز الرشيقة الخاصة بهم .

وبالنسبة للشحوحى فإنه يكره البقر ، ولا يأكل لحمه ، أو يشرب لبنـــه .

وكان الصباح التالى هو يوم الوصول ، وانتظرت زيارة الشيخ صالح ، التى وعد بها ، ولكن بلا جدوى ، ثم رأيت قارباً يقترب بعلمه الأحمر ، ورغم ذلك فإن راكبيه لم يكونوا على اتصال بمسقط ، ودل ذلك على أن الشيخ قاسمى تخلى عن رسائل الشيخ صالح ، وكان يفهم من ذلك أنه فى مأزق ، وكذلك أنا ، وقد فهمت أن الشيخ حسن وصل إلى قرية مجاورة ، وأنه جاء ليجالس مع الشيخ صالح ، وأنه جاء ليثير القبائل ، للوقوف بجانبه فى حالة أى إجراء عقابى يتخذ ضده ، وكانت إيماءة صالح أمس تعطى الدليل على ذلك .

وأرسلت للشيخ صالح رسالة أقول له فيها ، إن من ليس معنا فهو ضدنا . . وجاء القبطان راشد ليبلغنا بمجىء إحدى السفن ، وكانت قوية جميلة تلمع تحت ضوء الشمس ، وبالنسبة لى كان مجيئها زيارة غير متوقعة ، حيث لم يكن بالطراد آل سعيد لاسلكى ، ومن السفينة الجديدة الآتية يمكن أن أبلغ عن الموقف ، وقد كان قائد تلك السفينة يعلم الكثير عنى ، وعن بعثتى ، وتحادثت معه حـــول الخطط ، وكان سيعود إلى خصب كى

ينتظرنى ، ولكن الآن فإنى سوف أرحل أنا فى الطراد آل سعيد ، فى منتصف الليل ، لأصل إلى كومزار فى مطلع الصباح ، وهناك أحاول أن أثنى الكومزاريين عن تحديهم ، وأعقد تحالفاً معهم ، لما قد يطرأ من تطورات ، ولكن كانت هناك رقصات للحرب على الشاطئ رأيتها من خلال التلسكوب المزودة به السفينة لوبين ، وكان هذا يمثل تحدياً خطيرا .

وقد كان تفسير ذلك بسيطاً ، فقد كان وصول السفينة لوبين يوافق رحيل الشيخ زبير من الشاطئ ، وقد كان الشيحيون يقومون باحتفال لتوديعه ، ولكن ليس لهذا أى صلة ، بقيام حرب .

وكان هناك إثنا عشر رجلا من رجال القبيلة ، وكان الشيخ يقف فى وسطهم ، واضعاً ذراعه الأيسر على صدره ، والأيمن على رأسه ، كانوا كلهم يحنون رؤوسهم ، وهم يغنون أغانى جماعية .

وعند الفجر أبحرنا حول مسندم ذلك الساحل الصخرى العارى فى شبه جزيرة العرب .

وقد كان السكان القدامى للشاطئ يسمون « آكلى الأسماك » ولايزال هذا المصطلح يلائم ظروف المعيشة اليوم هناك ، ولكن مهما كان توزيع الأجناس قد تغير عبر العصور ، فإن قبيلة الشحوح بوضوح هى قبيلة مركبة من عناصر مختلفة ، فى العنصر ، وفى اللغة ، ليس فقط فى الداخل ، ولكن فى علاقاتها مع جيرانها العرب ، وهم يسببون كثيراً من الحيرة لدى الرحالة والمسافرين ، وقد تجاهل الجغرافيون ، لسوء الحظ ، قبائل الشحوح مثل ما تجاهلها المسافرون العرب القدماء .

وقد علمت من الشيخ حسن أن الشحوح يعود أصلهم إلى سبأ ، وقد هجروا أراضيهم منذ عصور بعيدة ، من أرض الملكة بلقيس ، ولم يزل صمت الكتاب القدماء غريباً يتجاهل تلك البقعة عند التحدث عن طرق التجارة القديمة عبر الخليج الفارسى . وقد تحدث مؤلف بابليون فى كتابه عن مسندم ، وهو يفترض أن مسندم كانت محطة هامة على طرق التجارة العظيمة فى العصور القديمة ، وكانت محطة للوقوف فى طريق التجارة من بابليون للهند .

الفصل الثامن

قائمــــة المظالم

وبعد ثمانية أسابيع من المفاوضات المضنية للسماح لنا بالرسو على التل هنا . . انتهت كل هذه المفاوضات بالرفض ، وكانت هناك رسالة من مجتمع الشحوح موجهة إلى الشيخ العظيم المبجل شيخ الدولة عيسى ، هذا نصها :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ..

نحيطكم علماً أننا قد سمعنا عما حدث مع الإنجليزى بخصوص موضوعات الشيخ حسن ، وكذلك الشيخ محمد بن أحمد ، ونحن الآن نبلغك تحذيرنا أنت ، والإنجليزى ، والشيخ حسن . وكل أتباعه ، بألا تتدخلوا فى شئوننا ، وألا تأتوا إلى أراضينا ، ومن يجرؤ على دخول هـــذا المكان فلن يعود منه ، ونقسم بالله ثلاثاً ، وبشرفنا ، أننا على استعداد لإعلان الجهاد ، وقتل كل من يصل إلينا ، فليس هناك حاكم علينا ، ونحن مستقلون بأنفسنا ، ولا نعترف بشيخ ، أو بحاكم ، أو سلطان ، والآن نحذركم كل كل التحذير ، ابتعد عن هذا المكان . مع شديد أسفنا لك ياشيخ عيسى ، وكن حريصاً على دفع العدو بالطريقة الناجحة ، وهذا هو مانحتاج إليه منك ، فلا تأت باللوم إلا لنفسك ، وكن حكيما ، وهذا هو مانحب أن نخبرك به .. نحن نسفك الدماء ، ولا نعبأ . فيجب عليك أن تعلم ذلك ، وألا تتدخل فى

شئوننا ، أو ممتلكاتنا ، وسلطتك تمارسها على نفسك وعلى عبدك ، لا علينا .»
ولا تلمنا »

التوقيع
محمد بن سليمان
شيخ البدو فى قضا

وقد وصل هذا الخطاب عن طريق السفينة « هـ . م . س لوبين » إلى المندوب العربى المقيم ، والمسئول عن المصالح البريطانية على الساحل المتصالح ، وهو الرجل الأكثر احتراماً فى تلك الأجزاء ، أما قضا فقد كانت خلال تلك الفترة خارج نطاق إشرافه ، وكانت فى الحقيقة تابعة لحصب كما كانت كل هذه القرى داخل حدود الميناء تابعة للشيخ حسن .

ووصل الخطاب بعد مناوشة فى الصباح ، وقد ظلت سفينة الأبحاث راسية بلا جدوى لمدة شهرين ، على أمل يتجدد يوماً بعد يوم ، بأن يغير هؤلاء عقولهم ، وقد تم إبلاغ أفراد السفينة لكى يرسلوا فريقاً إلى قضا عند الغروب ، وبالفعل تم إرسال مخبر سرى معهم كى يختبئ هناك ، ويعرف ، كيف تسير الأمور ، ولكنهم فوجئوا بخروج خمسين من المسلحين لملاقاتهم فجأة ، ووجه هؤلاء أسلحتهم ناحيتهم ، وأمروهم بالتوقف ، فقالوا لهم ، هل تعلمون ، أن الشيخ حسن أعطانا تصريحاً أمس بالدخول ؟

فقالوا : « ليس للشيخ حسن حق فى إعطاء أى شخص تصريحاً بالرسو هنا ، ونحن نقاوم كل من يقوم بذلك . . عودوا للسفينة » .

وعند الليل كان الوالى يعانى من المذلة والهوان على يد الشيخ حسن نفسه ،

وخلال الأحداث الجديدة كتب الشيخ حسن للوالى ، يقول له : إن بقاءه فى خصب سيؤدى بحياته إن لم يطبق على الحصن ، وبالفعل حاصر الشيخ حسن الحصن .

أما بالنسبة للمسئولين الموجودين فى ذلك المكان فقد كان الكيل قد طفح بالنسبة لهم ، وقد كان هناك ثمانية أسابيع من التفاوض لم تؤد إلى نتيجة ، وكانت سفينة الأبحاث تعود بعد فترة لأخرى للقيام لبعض الأبحاث فى المناطق المجاورة ، والتى لم تتضمنها الخطط التى كانت معدة لخصب .

وكانت هناك تلال قد هجرها سكانها ، وحسب الخطة فقد تلاقت سفينة هـ . م س لوبين « وسفينة القبطان راشد » الذى صاح على السفينة لوبين : ولكن قبل أن نطلق العنان لسفينتنا اقتربت السفينة « لوبين » منا ، وقال لى رجل : الحرب ، بناء عن إشارات للحرب ، ولم يكن الموقف أفضل مما قرر هو ، فقد كان الجو مضطرباً على الشاطئ ، ولا يمكن لأى شخص أن يعرض حياته للخطر ، ويهبط على الشاطئ ، فقد ازدادت عصبية الشيخ حسن ، وأصبح هو الزعيم الذى لايسأل ، ولم يعد حسن حتى الآن من دبا ، حيث تركته منذ ثلاثة أيام ، لذلك أرسلت رسالة وراءه ، ووصل خلال يوم أو يومين ، ولكنه رفض مقابلتى ورفض أن يأتى إلى السفينة ، وقرر أن يقابلنى فى الحصن ، ومعى الشيخ زبير ، وأحد أعضاء الأسرة المالكة ، وهو السيد مالك شقيق السلطان ، والذى كنت قد صحبته متوقعاً مثل ذلك الاحتمال ، لأن الشحوح يتباهون بولائهم إلى آل بو سعيد ، وقد كانوا يقاتلون منذ خمسة عشر عاماً تحت لواء مسقط . فى الحرب الأهلية فى عُمان ، وربما كان الشيخ حسن خائفاً ، فقد كان يحاول أن يخفى عودته ، ولكن الأثر الوحيد لعودته إلى خصب كان هو امتناع الصيادين عن بيع وجبة الصباح لنا .

وما يحدث هنا حسب الخبرات والتجارب أن الشيخ حسن قد أعطى لنفسه بعض الشجاعة فى اعتقاده ، وأنه لن يتعرض لأية عقوبات .

وتركت الطراد آل سعيد الآن وعبرت للحاق ب «ه . م. س لوبين» حيث بقيت هناك أتشاور مع قبطانها ، فالموقف يحتاج إلى عمل سريع ، وسوف يزداد سوءاً إذا لم نقدره ، ونبدأ فى علاجه ، حيث إن سلطة مسقط فى مسندم أضعف مما كانت من قبل ، وسوف تخمد فى الحال ، ومن أخطر النتائج التى يمكن أن تحدث أن ينتصر حسن ، فهذا الانتصار سوف يشجع الآخرين على القيام بنفس اللعبة والتمرد والعصيان ، وقد قمت أنا والقبطان بعملية قياس لجميع الاحتمالات ، ووضعنا نفسينا مكان السلطان .

فقد قمنا بعملية استكشافية للميناء بدقة ، وذلك لاحتمال القيام بعمليات ، وكانت هناك كتل صخرية ضخمة ، وجبال عالية ، وكهوف رملية ، وبحار هادئة ، وكان الضوء لامعاً بطريقة غير عادية ، كذلك بعض القمم التى تنعكس ظلالها على صفحة المياه بلونها ، وكذلك التلال العالية التى يغلفها الصباح بألوان رائعة . وعلى الجانب الشرقى من الميناء كان هناك مدخل بين الصخور يمتد لمسافة سبعة أميال مع رأس شام ، وهو جبل عال ، يرتفع لمسافة ثلاثة آلاف قدم ، وتظهر خلال جوانبه الملتوية المنعزلة بعض الأشجار هنا وهناك .

وإلى أسفل هناك قرية ظهورى أيضاً ، ويسكنها الصيادون بطريقتهم البدائية فى الحياة ، وهم يعملون فى الصيف فى مهنة صيد اللؤلؤ ، ويذهبون إلى الشواطئ المجاورة أحياناً لنفس العمل ، أو لاستجلاب العبيد ، وامتلاك العبيد لاحظته بوجه عام فى جنوب شرق الجزيرة العربية كلها ، فمن الصعب أن ترى شيخاً أو سيداً بلا عبيد ، يخدمونه ، ويعدون له

حاجياته . وأكثر الشيوخ فقراً تجد لديه ثلاثة أو أربعة عبيد ، وقد كانت معاهدات تجارة الرقيق بين بريطانيا العظمى وسلطان مسقط وبين شيوخ الساحل المهادن تتبعها أنشطة كبيرة من البحرية البريطانية ، وخاصة بإقامة عدد من الموانى على طريق التجارة وذلك لفتح أسواق للرقيق فى هذه الموانى الصغيرة ، ولكنهم لم ينجحوا فى القضاء على ذلك الاستخدام السيء للعبيد فى الداخل ، ولكن تم القيام بهذا بعد ذلك ، نظراً لتحريم الدين لاستخدام العبيد بطريقة سيئة ، وكذلك بقوة الرأى العام ، أما تفسير ذلك هنا فهو الشريعة التى تلعب دوراً هاماً فى عُمان . فلا بد من الامتثال لأحكامها ، فهى تحرم الاستعباد . والسخرة ، ، وللشريعة هيبة قومية للغاية فى عُمان ، وقد حدث تغير فى الرأى العام فى السنوات الأخيرة لمنع الاستخدام القاسى للعبيد ، وانتهت الآن عمليات بيع وشراء العبيد . والعبودية هنا نوعان :

(١) منزلية (٢) صناعية .

أما الأول : فهو الخاص باستخدام العبيد فى المنازل ، أما الثانى فهو الاستخدام للعبيد فى الصناعة .

وقد لاحظت الاستخدام المنزلى كثيراً فى الجزيرة العربية ، وهو ليس له وجود فى أوربا ، أما الصناعى فهو العبد الذى يعمل بالغطس لصيد اللؤلؤ ، أو الذى يجمع الثمار ، وهو يعمل إما فى حدائق سيده ، أو فى الصيد بقوارب سيده ، ولا يتقاضى أجراً ، سوى الطعام والكساء ، والسيد يطعم العبد كثيراً حتى يكون دائماً فى صحة جيدة لصالح العمل .

وإذا كان السيد لا يملك حدائق نخيل فيمكن للعبد أن يجمع الحطب ،

وإذا حاول أحد العبيد أن يهرب فإن أى شيخ فى أى مكان آخر يقوم بالقبض عليه ويعيده إلى سيده .

وتقوم حرفة صيد اللؤلؤ فى ضفاف عُمان المتصالحة — ذلك اللؤلؤ الذى يذهل العالم بجمال أشكاله وصلابته — على العبيد ، فهناك جيوش من الرجال تزحف للعمل باللؤلؤ ، بينهم دائماً نسبة كبيرة جداً من العبيد . لأن العبد دائماً خبير فى الغطس ، ومن المؤسف أن نجد ثمرة عمل العبد تذهب لسيده ، بينما يحصل الحر على ثمرة عمله ، وهناك مندوب يقوم بتصنيف الرجال فى قوائم ، قائمة للعبيد ، وأخرى للأحرار ، وهذا المندوب أكثر خبرة بأفراد القبائل ، وهو بمثابة متعهد عمال ، يأتى بالعمال ، ثم يأخذ أتعابهم وأجورهم ، ويوزعها حسب اتفاق بينهم .

وحين قامت السفن بزيارة خصب مرة إحدى للتحرى عن وضع العبيد منذ ستة أعوام ، حدث أن خطف اثنان من البلوشيين وتم بيعهما ، وهم الآن فى خصب ، بينما ينكر الشيخ حسن علمه بهما ، وكان أحدهما قد حاول الهرب ولكنه عاد مرة أخرى بعد أن ضيقوا عليه الخناق عليه .

وهنا ألوان كثيرة من القتل وإراقة الدماء ، وقد طالبت السلطات مرات عديدة بتسليم المجرمين ، ولكن الشيوخ كانوا ينكرون علمهم بهم ، ولذلك فقد ظلوا أحراراً ، وتنتشر هنا كذلك السرقات وحوادث العنف والمعاملة القاسية للعبيد ، وقد رفض الشيوخ الإشراف الحكومى على العبيد ، وهذا هو أسوأ ما فى مسندم .

الفصل التاسع

قصف بحرى

مرت الأيام على السفينة هـ . م . س لوبين فى سرور وسعادة ، وقد أمضت وقتها فى نشاط بالغ وحركة مستمرة من أجل الأهداف التى اختارتها ، تحدد المدى ، وتشحن المدافع بالذخيرة ، وكان ضابط الإشارة يحمل مجموعة من الرسائل والإشارات باللغة العربية لإطلاقها فى الهواء ، بينما كنا ننتظر رسالة من السلطات ، وجاء ضابط الإشارة بعدها برسالة ، وصاح القبطان « حسناً . لقد وافقت الحكومة البريطانية على تأييد سلطة عمان ، وسمحت للسفينة « لوبين » والطراد آل سعيد ، باتخاذ الإجراءات اللازمة التى عرضناها عليها » .

وكان الشحوح قد قاموا ببناء عدة أبراج فى الليل ، وشيدوا أحد هذه الأبراج فوق قمة صخرية على الميناء ، وهناك البنادق التى تنتشر على الشاطئ ، معبرة عن روح القتال ، وكنا على وشك أن نكتب إنذارا ، ولكن كانت زوجة الوالى والأطفال فى الحصن ولابد من إخلائه قبل أن ترسل الإنذار ، وفى الليل عبرت فوق الطراد آل سعيد حيث أبحرنا ، وقلت للقبطان رائد : أريد أن أصل إلى كومزار فى الفجر بأية طريقة .

وإذا كانت مسندم مربوطة بسندان فإن كومزار هى النقطة التى لابد

أن ينزل عليها الشاكوش ، وقد قمت بزيارتها مرات عديدة من قبل ، ولذلك فقد كانت لدى خلفية عن الرحلة .

وفى الفجر كنا نسير بين التلال الصخرية تجاه القرية ، التى تقبع أسفل تلك التلال ، ورسوت على شاطئ رملى ، ونزلنا إلى القرية حتى مررنا بمنزل أبيض ، وهو منزل صديقى القديم محمد بن مهدى ، وقد عانى الشيخ كثيراً من مؤامرات خصب ، وطلبت منه أن يمدنى بمائة رجل يهبطون فى خصب بالليل ، والليلة بالذات .

وقد كنت واثقاً من أن الشيخ حسن لن يرفض الهبوط ، وقال الشيخ لى : إننا لا يمكننا الهبوط ، لأن رياح الشمال خطيرة هناك .

فقلت للشيخ : إنك ستذهب أولا . وتهبط ، وتذهب للحصن لتأخذ أطفال وزوجة الوالى إلى قاربك ، حيث تبعدهم عن ميدان القتال .

ولم يكن الشيخ محمد مهدى من أعداء السلطان ، بل كان حليفا لجلالته ، وفى الواقع كان حليفاً متحمساً .

وفى الحقيقة فإن الشيخ محمد لم يدخر جهداً فى إعداد الرجال فى فترة وجيزة جداً ، وشق القارب عباب البحر ، محملا بالرجال الشجعان ، وفى المساء قمنا بإسقاط الرجال على بعد أميال قليلة من خصب ، حيث كان عليهم الانتظار حتى حلول الليل ، ثم التسلل سراً عبر الأرض ، ثم رسونا بسفننا على الشاطئ فى منطقة منعزلة بعيداً عن أنظار الشحوح ،

وأنزلنا هلب السفينة ، وحان وقت إرسال الإنذار من حكومة مسقط .
إلى الشيخ حسن بن محمد الشحوحي ونصه :

« نحن نأمرك بتسليم نفسك والاستسلام للحكومة « حكومة البوسعيد » وتسليم نفسك للطراد آل سعيد ، خـــلال ثمانية وأربعين ساعة ، من الإنذار ، وفى حالة الرفض ستضرب القوات المسقطية والبريطانية المنطقة بأكملها براً وبحراً ، وكذلك كل القرى قضا ، ومخا ، وهانا ، وفانخاً والحمسى وغاذا والحرف ونديفة ، ولم نسمح بالصيد ، وسوف يحدث حظر للتجول والترحال ، أما إذا قمت بتسليم نفسك فلن يحدث شيء ، لكن إذا رفضت فاعلم أنك ستكون مسئولا عن كل النتائج .

التوقيع
مجلس الوزراء فى مسقط وعمان

وتم إرسال رسالة أخرى لسكان خصب ، تحثهم على عدم المشاركة فى القتال ، وترك مواقعهم حتى لا يتعرضوا للقذف المستمر ، وكان ذلك فى صباح الجمعة ١٨ أبريل .

وقد حمل الإنذار قارب صغير ، ولكن الشيخ تسلم الرسالتين ، ولم يسلم رسالة السكان لهم ، ولذلك أرسلنا رسالة أخرى عن طريق آخر للسكان .

ومضت ثلاثة أيام ولم يصل أى رد ، وكان الواضح أن الشيخ حسن

يعتقد أننا غير قادرين على العمل ، أو أننا غير مستعدين ، ولم نسمع أى أنباء عن الشاطىء سوى أنه لدى الشيخ مدفعاً كذلك .

وفى فجر الاثنين ٢٢ أبريل كانت السفن وكأنها نائمة بعد شهور من الانتظار على الشاطئ ، وحان يوم التنفيذ وانطلقت القوارب ، وانتشر الدخان ، واقتربت الساعة ، وكان دورى فى البداية كمراقب ، وشاهد على ما حدث فى خصب ، وانطلق الرجال على الشاطئ وانطلقت طلقات المدافع التى كان رجال الشحوح يخبئونها خلف الصخور ، ونظرنا إلى ساعاتنا وقت التنفيذ ، وبدأت المدافع تنطلق ، واشتعلت الانفجارات والنيران فى مزارع النخيل ، وكانت ألسنة اللهب تنطلق إلى الهدف ، وكانت الأصوات كالرعد ، وأصبحت القرية التى تم ضربها وكأنها كتلة من الجحيم .

وظهر على الشاطئ قارب الشيخ ، وقد تحطم أحد جوانبه .

« وكان هذا يكفى على خصب اليوم » .

ثم انطلقنا بالقوارب للجهة الأخرى ، وكان هناك بعض الرجال الذين أسرعوا إلى القمم العالية ، وهناك على عمق ثمانية أقدام بعض الرجال ، ورفض القائد أن يضربهم بالمدافع قائلا : إنهم لم يطلقوا النار علينا ، وحرصاً على حياتهم ، وكان الشحوح يعسكرون على أحد التلال العالية التى أظهرها لنا التلسكوب ، وأمر الكابتن بإطلاق النار عليهم حتى يخفضوا رؤوسهم ، وكنا نقترب من المنحنى عندما ظهرت القرية مرة ثانية ، وتم توجيه أمر إلى الرجال بالبحث بين الصخور والقمم العالية ،

وإطلاق المدافع على كل ممر كى يفتشوا عن الشحوح

ثم وصل إلينا خطاب من الشحوح ، يطلبون فيه السماح ، وقالوا : إنهم لايريدون الشيخ حسن لاشيخاً ، ولا حاكما ،وأنهم مطيعون للسلطان منذ أيام جدودهم ، وأنهم لا يريدون التمرد ولا العصيان ، ويطلبون السلام والصفح . وهذا ما نصه :

إلى السيد مالك . . ابن السيد فيصل سلطان مسقط وعمان

حفظه الله ورعاه وحماه وجعل الجنة مثواه

وبعد . .

نحن شعبك ، وعبيدك ، ونحن عبيد للثرى الذى تدوسه أقدامك ، من أيام آبائنا وأجدادنا، واليوم نحن لا نريد حسنا، شيخاً،أو حاكماً على الإطلاق ، ونحن نطلب عفوك وسماحك ، ونضع أنفسنا تحت أوامرك ، ولا نستطيع إلا أن نطيعك ، فأنت إمامنا وسلطاننا ، وكل ما نرجوه أن يصلنا ردك على هذا الخطاب،ومهما كانت أوامركم فإننا مطيعون لك ،

فاعف عنا وأشفق علينا ، ومهما طلبت منا فنحن على استعداد لتقديمه .

من كل الشحوح فى قضا .

وامتلأ القبطان سروراً ، ولكنى كنت أنظر للموضوع نظرة مختلفة ، فقد كان رأيى ، أنهم لم يتركوا الشيخ حسن ، وسوف يذهبون معه إلى

الجحيم ، فقد كان قائلاً لهم منذ اثنتى عشرة ساعة فقط ، وطلبت أن يعلموا أن السلام لن يحل إلا إذا قاموا بتسليم الشيخ حسن لنا ، وكان علينا الانتظار قبل أى ضرب بالمدافع ، حفاظاً على أرواح الناس ، وخوفاً من الأضرار التى يسببها سقوط المنازل الطينية ، ولكن الشيخ حسن لم يستسلم بعد ، وهى مسألة وقت ، حتى ينفذ الطعام والمؤن ، وقد انهار منزل الشيخ حسن وجزء كبير من البرج والحصن ، وقد ظهر فريق معارض للشيخ حسن فى القرية ، يرفضون ما قام به الشيخ حسن حيث زج بهم فى هذا المأزق خاصة ، والشيخ حسن يؤمن بالقدر ، ولكن الله سبحانه لن ينصر الشرير ، ولا يساعد سوى الصالحين .

ثم جاءنا خطاب من دبى ، يطلبون فيه الصفح والغفران والرحمة بهم ، من أجل الله عز وجل ، ويخبروننا أن الشيخ حسن يختبئ خوفاً منا ، فقد وجد الشيخ حسن رفضاً ومعارضة شديدة فى الداخل ، فلجأ إلى بدو الجبال ، ولكن كيف يساعدونه ، خاصة وقد كان الميناء مليئاً بأضواء البحث ، وسوف يضطر كل من مع الشيخ حسن إلى النزول إلى القرية حيث البحث دائر فى الجبال .

ثم وصل قارب يحمل رسالة من الشيخ مكتوم للشيخ حسن ، يبعث فيها بغصن الزيتون ، ويعرض عليه خدماته من أجل إقرار السلام ، وجاءنى الشيخ مكتوم شيخ دبى يطلب منى معرفة شروط مسقط ، قبل أن يذهب إلى الشيخ حسن ، فقلت له : إن مسقط تطلب الاستسلام بلا شروط . . ولا بديل ، وأعدكم بمحاكمة الشيخ حسن محاكمة عادلة ، وبعد ساعة عاد وقد خرجت منى صيحة .

« هذا هو الشيخ حسن »

ثم أبحرنا ، وكان القبطان راشد سعيداً لأنه سينقل الشيخ حسن إلى مسقط . . وأرسلت خطاباً إلى سجن الجلالى فى نفس الوقت يقول : إن الشيخ حسن هو سجين الدولة ، وفى اليوم التالى نزلت إلى قرى خصب حيث حل السلام ، وهدأ الناس وسمعت صوت الآذان . .

الله أكبر . . الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله . .

محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول : رحلة شاقة مع جلالة السلطان فى الباطنة الشرقية	٩
الفصل الثانى : رحلة مع جلالة السلطان فى الباطنة الغربية	١٧
الفصل الثالث : رحلة بالجمال عبر شبه الجزيرة العربية	٢٥
الفصل الرابع : رحلة مع جلالة السلطان عبر الشميلية	٣٧
الفصل الخامس : رحلة العودة	٤٥

القسم الثانى

المقامرة ــ طبول الحرب فى مسندم	٤٩
الفصل الأول : المخاطر	٥١

القسم الثالث

المغامرة الثانية صفحات من يومياتى ..	٥٩
الفصل الأول : الربع الخالى	٦١
الفصل الثانى : المغامرة الثانية مع بنى على	٦٥
الفصل الثالث : أراضى الحدود الجنوبية	٦٩
الفصل الرابع : الجراد وكلاب البحر	٧٥
الفصل الخامس : الداخل المجهول	٧٩

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل السادس: قائد الطراد آل سعيد	٨٣
الفصل السابع : فى أرض الشحوح	٨٧
الفصل الثامن : قائمة المظالم	٩٣
الفصل التاسع . قصف بحرى	٩٩

مطابع سجل العرب